الجمهورية اليمنية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأندلس للعلوم والتقنية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الدراسات الإسلامية

أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام بين الإمام ابن حزم الظاهري والإمام الشوكاني في كتابيهما الإحكام وإرشاد الفحول

دراسة مقارنة

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في أصول الفقه

إعداد الطالب

حاشد أحمد غالب العنسي

إشراف فضيلة

الدكتور / مطيع بن محمد شبالة

١٤٣٨هـ -٢٠١٧ م

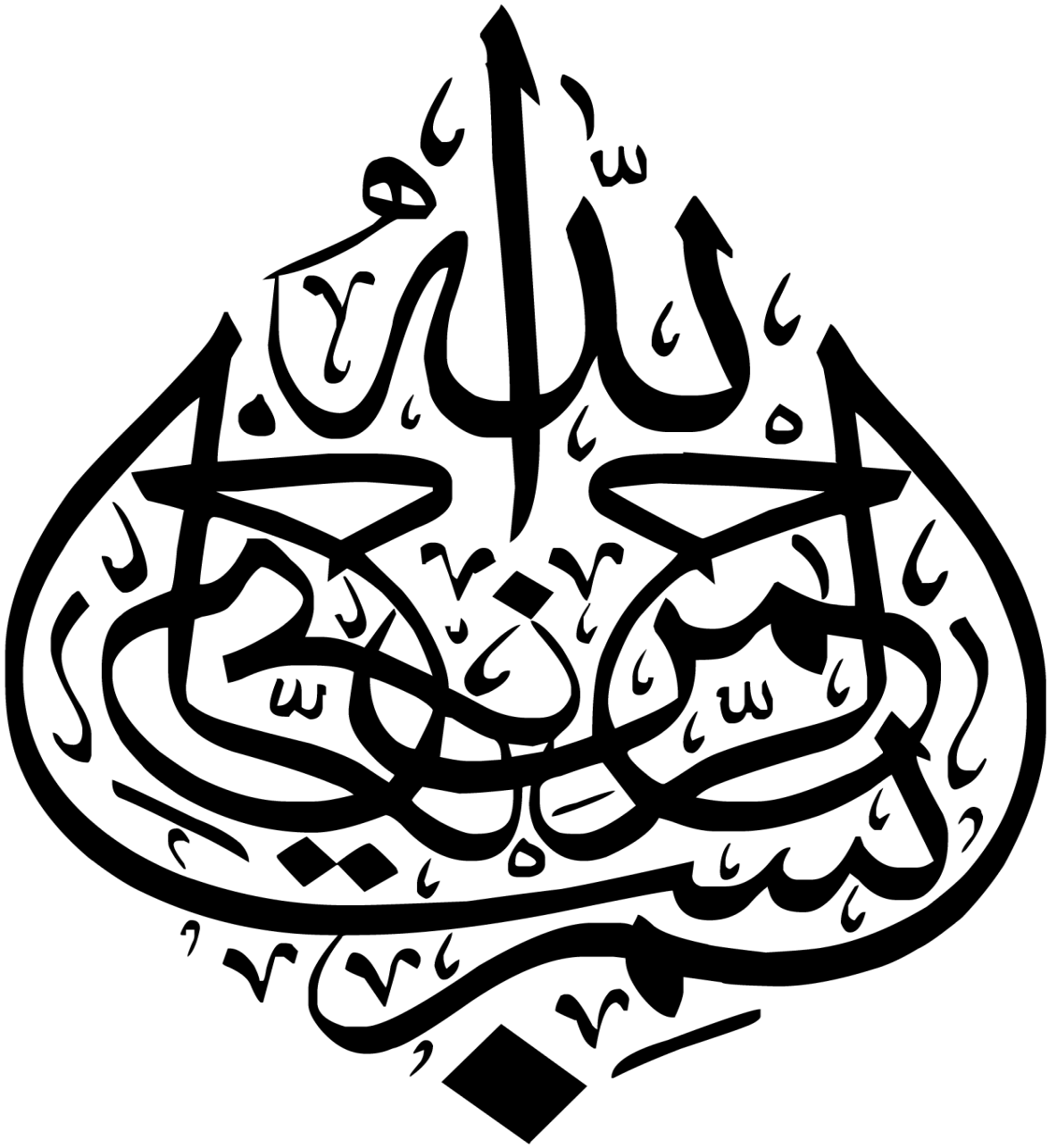

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا ملخص لهذه الرسالة العلمية لنيل درجة الماجستير في أصول الفقه وهي بعنوان:

(أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام بين الإمام ابن حزم الظاهري والإمام الشوكاني في كتابيهما الإحكام وإرشاد الفحول).

اشتملت هذه الرسالة على مقدمة، وفصل تمهيدي، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: وفيها دوافع اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته التفصيلية.

الفصل التمهيدي: وهو يشتمل على مبحثين:

أولاً: التعريف بالإمام ابن حزم وبكتابه (الإحكام في أصول الأحكام).

ثانياً: التعريف بالإمام الشوكاني وبكتابه (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

الفصول الأربعة المتبقية هي صلب هذه الرسالة، وهي كالتالي:

الفصل الأول: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها. أولاً: (القرآن الكريم).

الفصل الثاني: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها. ثانياً: (السنة النبوية).

الفصل الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها. ثالثاً: (الإجماع).

الفصل الرابع: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المختلف فيها. وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: القياس. المبحث الثاني: الاستصحاب. المبحث الثالث: الاستحسان.

المبحث الرابع: المصالح المرسلة. المبحث الخامس: سد الذرائع. المبحث السادس: شرع من قبلنا.

المبحث السابع: قول الصحابي.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث والتوصيات.

الفهارس: وتشتمل على فهرس الآيات والأحاديث والأعلام والمراجع.

نسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل

Abstraction

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the noble prophets and messengers, and on his family and companions. After:

The abstraction of this thesis to obtain a master's degree in the roots of Jurisprudence (the Foundations of Jurisprudence) entitled:

(Aspects of agreement and disagreement in the evidence of the rulings between Imam Ibn Hazm al-Dhahiri and Imam al-Shawkani in their books the rulings and guidance of the fahol " the most intelligent ")

The thesis included an introduction, a preliminary chapter, four body chapters, a conclusion, and indexes.

The Introduction: The rationale for selecting the topic, previous studies, research methodology, and detailed plan.

The preface chapter: It includes two sections:

The first Section: Introducing Imam Ibn Hazm and his book

(The rulings in the fundamentals of judgments) in Arabic alehkam on Usul al-ahkam

The second Section: Introducing Imam Al-Shawkani and his

book (guidance of Al-Fohl to the realization of the right of

knowledge of assets)in Arabic Irshad al-Fuhul

The remaining four chapters are the body of the thesis, as follows:

Chapter I: The terms of agreement and disagreements in the evidence of the agreed rulings. From (The Holy Quran)

Chapter II: The terms of agreement and disagreements in the evidence of the agreed rulings. From (Sunnah)

Chapter III: Aspects of agreement and disagreements in evidence of agreed rulings. From (consensus)

Chapter iv: The terms of agreement and disagreements in the evidence of the different rulings. Includes seven topics:

The first topic: Measurement.

The second topic: Escorting.

The Third topic: recommended.

The Fourth topic: The unrestricted interest

The fifth topic: prohibition of evasive legal devices.

The sixth topic: before us Shara (Shara whom are been before us).

The seventh topic: Say the companions

Conclusion: Includes the most important research findings and recommendations.

Indexes: Includes the index of verses and Hadiths, defined nouns and references.

We ask Allaah to success in word and deed.

الإهـــداء

إلى العطاء والبذل والتفاني بلا حدود...

إلى الروح الطاهرة والدي الغالي رحمة الله رحمة واسعة...

أبي الغالي مهما فعلتُ فلن أوفيك حقك، ولكنني لن أنساك ما حييتُ، وحُقَّ لي ذلك؛ حيث كنت لي بحراً مدراراً وينبوعاً فيّاضاً بالنصح والإرشاد والتوجيه والدعاء.

فأسأل الله ذا العرش المجيد الفعال لما يريد أن يجعل قبرك روضة من رياض الجنة، وأن يكرم نزلك، وأن يجعل الفردوس الأعلى مثواك. آمين.

إلى من حملتني وهنا على وهن، إلى والدتي العزيزة عذراً فقد عجز اللسان عن الشكر والامتنان، فأسأل الله عز وجل في علاه أن يحفظك وأن يطيل عمرك على طاعته. آمين.

إلى زوجتي الغالية عذراً فقد عجز اللسان عن شكرك على صبرك معي، أسال الله وجل في علاه أن يحفظك وأن يطيل عمرك على طاعته. آمين.

إلى كل أهلي وأسرتي أسال الله أن يوفقكم ويهديكم ويعينكم على طاعته. آمين.

الباحث

كلمة شكر وتقدير

أشكر الله سبحانه وتعالى بما منَّ به عليَّ من إتمام هذا البحث وأشكره على توفيقيه وامتنانه، وأساله أن يلهمني الشكر على ما فتح عليَّ وشرح صدري له وهداني إليه.

ولو أن لي في كلِّ منبتِ شعرةٍ ... لساناً يبثُ الشكر فيك لقصرا[1]

أتوجه بالشكر إلى جامعة الأندلس ذلك الصرح العلمي الشامخ الذي يعد منارة من منارات العلم في هذه البلاد المباركة. وأخص بالشكر:

رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور/ أحمد برقعان.

وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن عبد الرحمن بكير.

وهو موصول إلى عميد الدراسات العليا الأستاذ الدكتور/ يحيى بن عبد الرزاق قطران.

وأخص بمزيد من الشكر والتقدير أستاذي ومشرفي، ومن له فضل عليَّ، الذي غمرني بعلمه الغزيز، وحبه الصادق، وخلقه العالي، وتواضعه الجم، ونصائحه وتوجيهاته السديدة، فضيلة الأستاذ الدكتور/ مطيع بن محمد شبالة.

كما أن خالص شكري وتقديري للأستاذة أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد الواحد الشجاع أستاذ الفقه المقارن بجامعة صنعاء – كلية الآداب.

والأستاذ الدكتور/ علي بن حسن بن مثنى أستاذ الحديث وعلومه في جامعة صنعاء – كلية التربية، وجامعة أرحب.

على قبولهم تحكيم هذه الرسالة وتقويمها، وكُليَّ أُذنَ واعية لقبول الملاحظات وتعديلها.

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١/١٢٧.

ولا يفوتني في الختام أن أشكر كل من أعانني وشجعني على إتمام هذا البحث، من مشايخي والأساتذة والزملاء، وأهل بيتي.

أسال الله أن يجزل المثوبة للجميع، وأن يبارك في الجهود، وأن يخلص لنا النية، وأن يهدينا سبل السلام، وأن يخرجنا من الظلمات إلى النور.

والحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الباحث

حاشد بن أحمد بن غالب العنسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ذي الحجج البوالغ والنعم السوابغ حمداً يروي أصول رياض أفضاله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المفيض بجوده ونواله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله الذين هم شجرة أصلها النبوة وفرعها المروءة، وأصحابه الذين هم زينة الحياة وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنَّ شرف العلم لا يخفى، وهو درجاتٌ ومنازلُ تعرف بما تتَّصلُ به، فسموُّها من سموِّه، وقدرها من قدْره، فلذا كان أعلاها علوم الدِّين التي تدركُ بها معانيه وأسراره، وإنما شرفت وعظُم قدرها لصلتها بالله ربِّ العالمين.

وأعظم العلوم التي يدركُ بها مراد الله تعالى علم أُصول الفقه، فإنَّ الله تعالى أمر بتدبُّرِ خطابه فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

وأعظم ما يؤتاه الإنسان من المعرفة فقهٌ في دينه يعرِّفه بمعبوده تبارك وتعالى ويوصله به، وذلك له من المغاليق التي لا تفتح إلا بالإخلاص وسؤال الله تعالى التَّوفيق مع بذل الجهد في استعمال الآلة التي هي مفاتيح ذلك، والفتح فيها علامةٌ على أنَّ الله تعالى أراد الخير بصاحبها، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((من يرِد الله به خيرا يفقِّهه في الدِّين))[1].

ولقد قام الباحث – بمشيئة الله وفضله – في هذا البحث بدراسة أدلة الأحكام دراسة أصولية مقارنة من خلال كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) للإمام ابن حزم، وكتاب (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) للإمام الشوكاني.

يبيِّن فيها الباحث منهج الإمامين – ابن حزم والشوكاني – في أدلة الأحكام من خلال كتابيهما.

هذان الإمامان اللذان شهد لهما العلماء بأنهما من الراسخين في العلم وأثناء عليهما العلماء، ولما لهما من مرتبة عالية بين أهل العلم، ولأهمية كتابيهما في تأصيل منهجهما.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري برقم "٣١١٦" (٨٥/٤)، صحيح مسلم برقم "١٠٣٧" (٧١٩/٢).

فكتاب (الإحكام في أصول الأحكام) للإمام ابن حزم يعتبر الكتاب الظاهري الوحيد الذي سلم من آفات الزمان وهو مرجع أساسي لبيان أصول المذهب الظاهري.

ويعتبر كتاب (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) للإمام الشوكاني المرجع الأصولي الوحيد لمنهج الشوكاني.

فلأجل هذا وغيره قصدت موروث هذين الإمامين في أصول الفقه، مستخرجاً أدلة الأحكام التي استعملها ومقارناً بينهما حسب الخطة المذكورة مستعيناً بالله قاصداً وجهه الكريم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- **أهمية الموضوع:**

تتلخص أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

١. أن هذا النوع من العلم – أصول الفقه – ذو أهمية بالغة.
٢. وجود هذا النوع من العلم– أصول الفقه – في موروث الإمامين، وفي كتابيهما.
٣. تمكن الإمامان من علم الأصول ورسوخهما فيه مع استقلاليتهما في العرض والمناقشة والترجيح.
٤. بيان منهج الإمام ابن حزم، والإمام الشوكاني الأصولي في أدلة الأحكام، ومقارنته بينهما.
٥. إن هذا العلم– أصول الفقه – فائدته جليلة وكبيرة لمن يهتم به.
٦. المشاركة في خدمة العلم الشرعي وأهله بجمع هذا الموضوع المفيد وتقريبه؛ فتتيسر الاستفادة منه أكثر.

- **أسباب اختيار الموضوع:**

١- لا يوجد من بحث وجمع بين الإمامين من قبل كدراسة، حسب ما اطلع عليه الباحث.
٢- كون كتاب الإحكام مرجع أساسي في الأصول للمذهب الظاهري، وكتاب إرشاد الفحول المرجع الأصولي لبيان منهج الشوكاني واختياراته.
٣- التشابه الكبير بين حياة الإمامين، فكان هذا البحث للوقوف على مدى التطابق والاختلاف بين الإمامين وهل تأثر الإمام الشوكاني بطريقة ابن حزم في تقرير أدلة الأحكام أم لا.

٤- كون هذا الموضوع بحاجة كبيرة إلى الخدمة والعناية والنظر فيه والامعان والتمحيص في هذا المجال.

٥- وجود هذا العلم – أصول الفقه – في الكتابين المذكورين وتمكن الإمامان فيهما.

٦- يعتبر هذا النوع من العلم – أصول الفقه – وسيلة أساس في فهم كتاب الله.

- **الدراسات السابقة:**

من خلال تتبع الباحث للدراسات السابقة، وما ألف في ذلك، وسؤال الباحث لبعض المتخصصين داخل اليمن وخارجه، والنظر في فهارس المكتبات، وجد الباحث أنه لم يتطرق أحد من الباحثين للجمع بين الإمام الشوكاني والإمام ابن حزم الظاهري.

- **منهج البحث:**

١. اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث إنه أنسب مناهج البحث العلمي لمثل هذه الموضوعات العلمية.
٢. جمع أدلة الأحكام – المسائل الأصولية – من خلال الكتابين المذكورين.
٣. دراسة أدلة الأحكام – المسائل الأصولية – التي سيتم جمعها دراسة وافية، وطريقة الباحث:

أ- اذكر المسألة بأتم عبارة عند العلماء أولاً.

ب- ثم اذكر مذهب الإمام ابن حزم في المسألة إن وجد.

ت- ثم اذكر مذهب الإمام الشوكاني في المسألة إن وجد.

ث- اذكر المناقشة والترجيح من حيث: الموافق والمخالف للإمامين، ومناقشة الأدلة، وسبب منشأ الخلاف، وقد اذكر الأثر الفقهي في المسألة مختاراً من التطبيقات ما كان أوضح وأبين.

٤. أبيِّن مواضع الآيات القرآنية التي يرد ذكرها في البحث، فاذكر اسم السورة ثم رقم الآية.
٥. أخرج الأحاديث، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بعزوه إليهما، وإن كان في غيرهما عزوته إلى مصدره مبيِّناً درجته من حيث القبول والرد.
٦. أكتفي في تخريج الأحاديث بذكر الكتاب الذي ورد فيه الحديث، ورقم الحديث، ورقم المجلد، ورقم الصفحة فقط؛ حتى لا يطول التوثيق.

٧. لا التزم بترتيب المصادر في الهامش حسب الأقدمية.

٨. أبين معاني الكلمات الغريبة.

٩. الترجمة للأعلام غير المشاهير، وضابط عدم الاشتهار لديَّ: كل من عدا الرسل والخلفاء الأربعة، وأئمة المذاهب الأربعة.

١٠. إذا ورد لفظ " أبو محمد " فالمقصود به عند الباحث الإمام ابن حزم.

١١. صنع فهارس متنوعة من شأنها أن تخدم البحث، وتسهل الوقوف على فوائده، وهي:

أ- فهرس الآيات القرآنية.

ب- فهرس الأحاديث النبوية.

ت- فهرس الأعلام.

ث- فهرس المصادر والمراجع.

ج- فهرس الموضوعات.

- **خطة البحث:**

وتشمل مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول وخاتمة:

❖ **الفصل التمهيدي: التعريف بالإمامين ابن حزم والشوكاني**

أولاً: التعريف بالإمام ابن حزم، وبكتابه(الإحكام في أصول الأحكام).

ثانياً: التعريف بالإمام الشوكاني، وبكتابه(إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

❖ **الفصل الأول: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها: أولاً: (القرآن الكريم) وفيه سبعة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم.

المبحث الثاني: حجية القرآن الكريم.

المبحث الثالث: في ترتيب سور القرآن الكريم.

المبحث الرابع: الحروف السبعة.

المبحث الخامس: المعرب في القرآن الكريم.

المبحث السادس: المتشابه في القرآن الكريم.

المبحث السابع: في ما نقل آحاداً من القرآن الكريم.

❖ **الفصل الثاني: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها: ثانياً: (السنة النبوية) وفيه أربعة عشر مبحث:**

المبحث الأول: تعريف السنة.

المبحث الثاني: حجية السنة ومكانتها.

المبحث الثالث: عصمة الأنبياء.

المبحث الرابع: أقسام السنة من حيث ماهيتها وحكم هذه الماهية.

المبحث الخامس: في تعارض أفعال وأقوال النبي عليه الصلاة والسلام.

المبحث السادس: في الأخبار.

المبحث السابع: الحديث المتواتر.

المبحث الثامن: حديث الآحاد.

المبحث التاسع: شروط العمل بخبر الواحد.

المبحث العاشر: تعارض خبر الآحاد مع غيره.

المبحث الحادي عشر: ألفاظ الرواية.

المبحث الثاني عشر: الجرح والتعديل.

المبحث الثالث عشر: الحديث المرسل والمنقطع.

المبحث الرابع عشر: من هو الصحابي.

❖ **الفصل الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المتفق عليها: ثالثاً: (الإجماع) وفيه عشرة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف الإجماع.

المبحث الثاني: في إمكان وقوع الإجماع.

المبحث الثالث: في إمكان الاطلاع على الإجماع.

المبحث الرابع: حجية الإجماع.

المبحث الخامس: ما ينعقد به الإجماع.

المبحث السادس: من يعتبر في الإجماع.

المبحث السابع: حجية بعض الإجماع.

المبحث الثامن: انقراض العصر.

المبحث التاسع: الإجماع السكوتي.

المبحث العاشر: مسائل تتعلق بالإجماع.

❖ **الفصل الرابع: أوجه الاتفاق والاختلاف في أدلة الأحكام المختلف فيها: وفيه سبعة مباحث:**

المبحث الأول: القياس.

المبحث الثاني: الاستصحاب.

المبحث الثالث: الاستحسان.

المبحث الرابع: المصلحة المرسلة.

المبحث الخامس: سد الذرائع.

المبحث السادس: شرع من قبلنا.

المبحث السابع: قول الصحابي.

الخاتمة: أهم النتائج التي توصل إليها الباحث والتوصيات.

الفهارس الفنية اللازمة للبحث، وهي:

فهرس الآيات.

فهرس الأحاديث.

فهرس الأعلام.

فهرس المصادر والمراجع.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي

التعريف بالإمامين ابن حزم والشوكاني

أولاً: التعريف بالإمام ابن حزم وبكتابه

(الإحكام في أصول الأحكام).

ثانياً: التعريف بالإمام الشوكاني وبكتابه

(إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

أولاً: التعريف بالإمام ابن حزم وبكتابه (الإحكام في أصول الأحكام).

أ: دراسة موجزة لعصر الإمام ابن حزم.

ب: التعريف بالإمام ابن حزم.

ج: دراسة موجزة عن كتاب الإحكام.

أ: دراسة موجزة لعصر الإمام ابن حزم

من الأمور المهمة لمعرفة أي شخصية ومكانتها، وقيمة جهودها العلمية والعملية؛ معرفة العصر الذي عاش فيه، وللتعرف على مكانة الإمام ابن حزم ومعرفة الأثر الذي تركه هذا العصر على شخصية وعقلية وفكر الإمام، سوف ندرس ذلك العصر من خلال الحالة السياسية، والحالة الاجتماعية، والحالة العلمية، والحالة الدينية.

المسألة الأولى: الحالة السياسية

نحاول في هذا المسألة أن نصف ونذكر أهم الأحداث التي عاشها وعاصرها الإمام ابن حزم في الأندلس[١] ما بين (٣٨٤-٤٥٦هـ) أي في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، وبداية النصف الثاني من القرن الخامس، ويمكن وصف هذه الحالة ملخصة في النقاط التالية:

أولاً: الدولة العامرية والتي كانت تعد من عهد الخلافة التي سقطت في (٣٩٩هـ) والتي كان والد الإمام ابن حزم وزيراً فيها.

ثانياً: فتنة البربر[٢] التي كانت في سنة (٣٩٩هـ).

ثالثاً: زوال سلطان بني أمية سنة (٤٢٢هـ).

رابعاً: معاصرت ابن حزم ما عرف بعهد ملوك الطوائف(٤٠٠-٤٨٤هـ)[٣].

---

(١) اسم الأندلس في اللغة اليونانية اشبانيا، قال الحموي نقلاً عن الرازي: أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش بالشين معجمة، بهم سمي البلد، ثم عرب والأندلس هي التي تسمى الآن في الوقت الحاضر بأسبانيا. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص٣٣.

(٢) هو اسم يشتمل قبائل كثيرة في جبال المغرب، وهم أمم وقبائل لا تحصى، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويقال لمجموع بلادهم بلاد البربر، وقد اختلف في أصل نسبهم، فأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب، وهو بهتان منهم وكذب. انظر: معجم البلدان للحموي (١/ ٣٦٨)

(٣) لإعطاء تصور واضح عن تاريخ الأندلس، اعلم أنه قد اصطلح المؤرخون على أن الأندلس من تاريخ فتحها سنة (٩٢هـ) وحتى سقوط غرناطة سنة (٨٩٧ هـ) مرت بعدة عهود، ويمكن إجمالها على النحو التالي:
أولاً: عهد الفتح الذي استمر حوالي أربع سنوات (٩٢-٩٥هـ). **ثانيا:** عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ). **ثالثاً:** عهد الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ). **رابعا:** عهد الخلافة (٣١٦-٤٠٠هـ). **خامسا:** عهد الطوائف (٤٠٠-٤٨٤هـ). **سادسا:** عهد المرابطين والموحدين (٤٨٤-٦٢٠هـ). **سابعا:** مملكة غرناطة (٦٢٠-٨٩٧هـ).
انظر: تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للحجي (ص: ٣٩-٤٠).

وهذه الأحداث بينها تداخل وإليك بيان هذه الحقبة التاريخية بإيجاز:

ولد الإمام ابن حزم في بداية الدولة العامرية (٣٦٦-٣٩٩هـ) والتي أسسها: محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور[١]، وذلك بعد وفاة الحكم الملقب بالمستنصر بالله[٢]، وقصة خلافته أنه بعد وفاة الحكَم، ولِي من بعده ابنه هشام[٣]، وكان صغيراً مناهزاً الحلم، وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر لما له من المكانة والقدر، فلما توفي الحكم بويع هشام ولقب بالمؤيد، ولكن الحاجب المنصور لصغر سن هشام حجبه وتولى مقاليد الحكم[٤]. ولما توفّي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفّر[٥] فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو[٦]، وكان أحمد بن سعيد بن حزم[٧] من وزراء المنصور ووزراء ابنه المظفر بعده، وكان هو المدبر لدولتيهما. ثم تولى بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله [٨]، وقد جرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه، بل تطلع إلى أن يكون وليا للعهد، وأمر هشام المؤيد أن يكتب له بذلك وتسمى بعدها بولي العهد، وانفتح باب الفتنة ونقم أهل الدولة عليه بذلك

---

(١) محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر المعافري القحطاني، أبو عامر، المعروف بالمنصور من أسرة يمنية الأصل صنع المنصور ابن أبي عامر مجداً لم يصنعه أحد في الأندلس وخاض خمسين معركة لم يهزم فيها مرة. توفي سنة ٣٩٣هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١٢٣/١٧)، بغية الملتمس للضبي ص١١٥.

(٢) الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله: خليفة أموي أندلسي. ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه (سنة ٣٥٠ هـ)، وكان حسن السيرة، كَانَ موتُه بِالفَالِجِ سنة ٣٦٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٩/٨)، بغية الملتمس للضبي ص١٨.

(٣) المؤيد بالله بن المستنصر بالله بن الناصر الأموي، الأندلسي، أبو الوليد. ولي الأمر بعد والده، وطالت أيامه. بويع وله اثنا عشر عاماً بإشارة الدولة، وكان ضعيف الرأي، أخرق، محجوراً عليه، فكان صورة، وكان المنصور هو الكل. توفي مقتولاً سنة ٤٠٣هـ. انظر: بغية الملتمس للضبي ص٢١، سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٢٧١).

(٤) انظر: تاريخ الاندلس لإسماعيل بن إبراهيم من خلال مخطوط (٢٦/١-٤٠).

(٥) عبد الملك (المظفر) بن محمد (المنصور) بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، أبو مروان: كان في أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه في الحجابة للمؤيد الأموي، تلقب بسيف الدولة " الملك المظفّر بالله ". توفي سنة ٣٩٩هـ. انظر: بغية الملتمس للضبي ص٣٧٣.

(٦) انظر: نفح الطيب للتلمساني (٤٢٣/١).

(٧) أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب أبو عمر الوزير والد الفقيه أبي محمد، وزير الدولة العامرية، من أهل الأدب والعلم والخير، مات قريباً من٤٠٠هـ وقيل ٤٠٢هـ. انظر: بغية الملتمس للضبي ص١٥٦.

(٨) عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الملقب بالناصر الأمير بعد أخيه عبد الملك، توفى مقتولاً سنة ٣٩٩هـ، قتله محمد بن هشام بن عبد الجبار وصلبه. انظر: بغية الملتمس للضبي ص٢١.

فكان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه، وكان ذلك على يد المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار[١]، وبذلك انتهت دولة العامريين سنة (٣٩٩هـ)[٢].

- **سقوط الدولة الأموية**

تولى في هذه الفترة حكم الأندلس عددا من الخلفاء الأمويين يزيد عددهم على عدد كل من تولى الحكم منذ قيام الأندلس، حيث ضاعت هيبة الخلافة، وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العصبيات والقبليات المقيتة أكثر مما سبق. ولما كان والد ابن حزم وزيراً للمنصور، ثم لابنه المظفر من بعده، كان من الطبيعي أن يتأثر الابن (علي بن أحمد) بحياة أبيه، ومن هنا دخل ابن حزم الحياة السياسية في فترة اتسمت بالاضطراب، وكثرة التقلبات، والإطاحة بالحكم واغتيالات الأمراء، والحكام[٣].

---

(١) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الاموى، أبو الوليد. خرج على (المؤيد بالله) بقرطبة سنة ٣٩٩هـ، وبايعه الناس فتلقب بالمهدي بالله وملك قرطبة فحبس (المؤيد) في القصر، ثم أظهر أنه مات، واستقر أمره إلى أن انتقض عليه سليمان بن الحكم، وتغلب عليه، فاختفى ابن عبد الجبار. انظر: بغية الملتمس للضبي ص٢١.

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون (١٤٨/٤-١٥٠).

(٣) فبعد أن تولى المهدي، قام عليه هشام بن سليمان بن الناصر لدين الله مع البربر، وقام عليه عامة أهل قرطبة مع محمد بن هشام، فانهزم البربر. ثم اتفق البرابرة والمناصرين للمنصور على مبايعة سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله الذي تلقب بالمستعين سنة (٤٠٠هـ) ونهضوا به إلى ثغر طليطلة، فاستجاش المهدي بابن أدفونش، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة، وكانت الدائرة عليهم واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ودخل المستعين قرطبة خاتم المائة الرابعة ولحق ابن عبد الجبار بطليطلة. ولما استولى المستعين على قرطبة خالفه محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة واستجاش بابن أدفونش ثانية فنهض معه إلى قرطبة، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر، ودخل المهدي قرطبة وملكها. ولما دخل المهدي إلى قرطبة خرج المستعين إلى البرابرة وتفرقوا في البسائط والقرى ينهبون ويقتلون ولا يبقون على أحد، ثم اتبعهم المستعين والبرابرة فقتلوا المهدي محمد بن هشام واجتمعت الكافة على تجديد البيعة لهشام المؤيد ليعتصموا به من معرة البرابرة وما يسومونهم به ملوكهم من سوء العذاب، وعاد هشام إلى خلافته، ثم قتل هشام وأعيد المستعين ونهض خيران العامري يكاتب الأدارسة، ويحرض الناس على خلع المستعين، حتى جاء علي بن حمود العلوي من الأدارسة وملك قرطبة سنة ٤٠٧، وقتل المستعين فانقرضت دولة الأمويين وبدأت دولة العلويين، وأوجس خيران العامري خيفة من ابن حمود فسعى سرا ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في خروجه منهم، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر الأندلس عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر ولقبوه بالمرتضى سنة (٤٠٨) وتغير المرتضي على خيران وكانت بينهما أحداث انتهت ببيعة عبد الرحمن بن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر بالله سنة (٤١٤)، وتعاقب المستضعفون من بني أمية والأمر بينهم وبين العلويين دول، حتى بويع هشام ابن محمد المعتد بالله سنة (٤١٨)، فاضطربت ولايات الأندلس وخلع هشام سنة (٤٢٢هـ)، وهب أمية بن عبد الرحمن عبد الرحمن ابن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة=

- **عهد ملوك الطوائف**

عاشت الأندلس بعد ذهاب الخلافة وانتهاء الدولة الناصرية في حالة من التفرق والشتات بعد الألفة والاجتماع، وقد تبدل حالهم وكثر النزاع والشقاق والقتل والسرقة والنهب، وتفرقت البلاد شذر مذر، وعندها بدأ عهد الطوائف حيث تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ، وقسمت الأندلس إلى مماليك أو دويلات مستقلة، يحكم كلا منها أمير مستقل، كل أمير يتربص في إسقاط ملك أخيه ووصل بهم الحال أن يستعينوا بالكفار على قتال إخوانهم، بل وصل بهم الحال لأجل مصالحهم الذاتية وللمحافظة على الملك والسلطة أن يبيعوا ضمائرهم وأخلاقهم للعدو المتربص.

إنها صورة من صور مآسي المسلمين التي لا تخرج عن سنة الله. إن الإمام ابن حزم عاش هذه الحقبة العصيبة والمحزنة، وقد ذاق مرارتها وهو ما زال شاباً في الخامسة عشرة من عمره تقريباً إلى أن توفي. ونلحظ في هذه الفترة صورا من الفساد التي حلت بالبلاد والعباد، من الفرقة والاختلاف، والاستعانة بالنصارى على بعضهم البعض، ومن الجرأة على الدماء ونهب الأموال والاعتداء على الممتلكات والمجاهرة بالذنوب والمعاصي.

يقول ابن حزم واصفاً ذلك الواقع المرير وحال الأمراء في تلك الفترة: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون بالنصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين، وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس"(١).

ويصدق على الناس في تلك الفترة الزمنية قول القائل: أغلق عينيك، واضرب بيديك، ولك ما تجمع، إما ثمرة وإما جمرة، بل وصل ببعض الأمراء أخذ الضرائب على المسلمين، في كل أموالهم، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد وفي تلك الأوضاع السيئة والفتن والتفكك والفساد كان لابن حزم موقفا شرعياً منها.

كان موقف ابن حزم الشرعي من هذه الأحداث أن خط ذلك ببنانه في كتابه التلخيص لوجوه التخليص، عندما سئل عن أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فقام بتشخيص مظاهر المرض وسبل العلاج والوقاية منه، فقال: " فهذا أمر امتحنا به،

= حتى سئم الناس الأمويين ونادى أهل قرطبة بالأسواق والأرباض بالوقيعة في الأمويين حتى لا يبقى منهم أحد فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد وختم ملكهم سنة (٤٢٢ هـ). انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥٦٥/٧ وما بعدها.

(١) رسائل ابن حزم (التلخيص لوجوه التخليص) لابن حزم (١٧٦/٣).

نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله – تعالى – من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة، أو حصن في شيء من أندلسنا هذه – أولها عن آخرها – محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد، للذي ترونه عيانا، من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طريق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم"(١).

ثم يذكر ابن حزم موقفه من علماء السوء ومحذرا من الاغترار بما يقولون، فيقول: " فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق، والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم"(٢).

ثم يذكر المخلَص والمخرج من ذلك، فيقول: " فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة، إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم جميعهم، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه، وما أدري كيف هذا، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا "(٣).

من نتائج هذه الدراسة، يتبين لنا التالي:

١- إن عصر ابن حزم كان عصر الاضطراب السياسي فهو عصر انتهاء دولة وابتداء أخرى، والناس بينهما في مضطرب من الأفكار والمنازع وقد اختلفت الولايات والأولياء، وأمر الرعايا بين الأمراء المتنازعين، لقد عاصر ابن حزم آخر الأمويين في الأندلس، فرأى دولة بني أمية ينحدر سلطانها، ويهوي الأمر فيها إلى أحد أوليائها أبي منصور العامري، ثم رأى الأمر يعود إليهم ثم يخرج، وهذا كله في عصر واحد.

٢- أن هذه الفتن والمحن التي عاصرها ابن حزم كانت سببا في صقل شخصيته، وزرعت فيه نوعا من حدة الطبع لشدة ما واجهه من خصومه، ومن جهة أخرى أعطته نوعا من الشعور بالمسؤولية تجاه أمته مما جعله يسعى إلى الإصلاح ما ستطاع إلى ذلك سبيلا، وجعلته يتتبع مكان الداء، ويصف الدواء.

---

(١) المصدر نفسه (١٧٣/٣).

(٢) المصدر السابق (١٧٣/٣).

(٣) رسائل ابن حزم (التلخيص لوجوه التخليص) لابن حزم (١٧٣/٣).

٣- أن هذه الفتن جعلته يزهد في السياسة، ويشتغل بالدرس والتأليف، مما جعله يملأ المكتبة الإسلامية ببحوثه ودراسته الفاعلة، ويضع عليها صبغته الخاصة به.

٤- نظرة الإمام ابن حزم إلى الأمراء في ذلك العصر والعلماء والفقهاء من المقلدة والذين كانوا يزينون للأمراء ما كانوا يفعلون، نظرة ازدراء واحتقار، مما دعاهم إلى أن يؤذوه بأصناف من العذاب والبلاء، النفسي والجسدي، وأما البلاء النفسي الذي تعرض له الإمام ابن حزم فكان أشد عليه من العذاب الجسدي.

كان من تلك المحن[١] التي عصفت به ما يلي:

أ - **إحراق كتبه:** والذي قام بهذه الجريمة الكبيرة، هو المعتضد ابن عباد[٢]، وكان السبب في ذلك: تأليب الفقهاء عليه، وتحريضهم الأمراء، وشكواهم من أنه يهاجم مالكا والأئمة الأربعة.

والسبب الثاني: أنه وافق ما في هوى المعتضد الذي يعتبر ابن حزم من المناوئين لحكمه؛ لأنه عرف بولائه لبني أمية؛ ولأنه كان مؤرخا بلاد الأندلس وكان يكتب بكل حرية وتجرد، فوجد الفرصة المناسبة للانتقام منه، فقام بفعلته تلك[٣]، ولكن هذه المصيبة، تلقاها الإمام بكل قوة وصبر وتجلد كعادته، حتى أنه أخذ يسلي نفسه بهذه الأبيات قائلاً:

فَإِنْ تَحرِقُوا القِرطَاسَ لا تَحرِقُوا الَّذي ... تَضَمَّنَهُ القِرطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِي حَيثُ استَقَلَّت رِكَائِبِي ... وَيَنزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدفَنُ فِي قَبرِي
دَعُونِي مِنَ إِحرَاقِ رَقٍّ وَكَاغَدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَي يَرَى النَّاسُ مَن يَدرِي
وَإِلَّا فَعُودُوا فِي المَكَاتِبِ بَدأَةً ... فَكَم دُونَ مَا تَبغُونَ للهِ مِن سِترِ
كَذَاكَ النَّصَارَى يَحرِقُونَ إِذَا علَت ... أَكُفُّهُم القُرآنَ فِي مُدُنِ الثَّغرِ[٤]

---

(١) يرى الباحث أن ذكر هذه المحن في هذا الموضع أفضل من ذكرها في المطلب الثاني (نبذة عن حياة الإمام ابن حزم)، ليتضح بذلك كيف تأثرت شخصية الإمام ابن حزم بمجريات عصره.

(٢) أبو عمرو، عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي الاندلسي، ابن القاضي أبي القاسم، حكم أبوه على إشبيلية مدة، ومات في سنة ٤٣٣هـ، فقام عباد بعده، وتلقب بالمعتضد بالله، وكان شهما، مهيبا، صارما، جرى على قاعدة أبيه مدة، ثم خوطب بأمير المؤمنين. توفي سنة ٤٦٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥٦/١٨).

(٣) انظر: ابن حزم حياته وعصره لأبي زهرة (ص: ٧-٨).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٥/١٨).

ب -إجلاؤه عن قرطبة: وكان ذلك في عهد محمد بن هشام الملقب بالمهدي سنة (٣٩٩هـ)[١]، حيث أجلي هو وعائلته من الجانب الشرقي من قرطبة إلى دورها القديمة في الجانب الغربي منها.

ولم تطل فترة استقراره حتى أجلي من منازلها سنة (٤٠٤هـ) في عهد هشام بن الحكم المؤيد، فغادرها إلى المرِية[٢] وسكن بها، وكله حزن وأسى على فراق تلك البقعة التي نشأ وترعرع فيها، حتى أنه كان يصف قرطبة وأهلها وقصورها وصفا عجيبا، ويذكر أيامه فيها وأحبابه هناك، وقد ذكر ذلك في كتابه طوق الحمامة بنثره البديع[٣].

ج -السجن: وقد تعرض ابن حزم للسجن مرتين:

الأولى: لما كان في المرِية، وكان يحكمها خيران العامري[٤]، إذ وشَى إليه من لا يتقي الله، أن ابن حزم يسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فسجِن بضعة أشهر، ثم أخرج إلى حصن القصر نفيا، وبقي فيه بضعة أشهر[٥].

الثانية: لما كان وزيراً للمستظهر عبد الرحمن بن هشام[٦]، انتهت وزارته بالسجن[٧].

هذا من أهم الأحداث السياسية التي عاصرها الإمام ابن حزم، وأهم الآثار التي وقعت عليه، وبذلك ينتهي الحديث في المسألة الأولى عن الحالة السياسية والله المستعان.

---

(١) انظر: جذوة المقتبس للحميدي ص٢٧٨.

(٢) المرِية : تقع على ساحل البحر المتوسط جنوب الأندلس، ومدينة المرية مخففة الراء، وهي مدينة مشهورة وفيها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران. انظر: معجم البلدان للحموي (١١٩/٥).

(٣) انظر: طوق الحمامة لابن حزم (ص: ١٥١-١٥٢).

(٤) خيران مولى المنصور بن أبي عامر، ذكر أنه كان من خيرة الموالي العامرية وهو الذي وجه بعلي بن حمود العلوي إلى سبتة، وقام بدعوته، ووصل معه إلى أن حصلت له قرطبة، فاستشعر منه خيران الغدر به، ففر وقام بدعوة المرتضى المرواني، ثم وضع على المرتضي من قتله. توفي سنة٤١٨هـ.انظر: تاريخ ابن خلدون (٢٠٨/٤).

(٥) انظر: طوق الحمامة لابن حزم ص٢٦١.

(٦) عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي. كانت ولايته شهرا واحدا وسبعة عشر يوما يوما وقتل سنة (٤١٤هـ)، ولم يعقب وكنيته أبو المطرف، وكان أديباً خطيبا بليغا رقيق الطبع له شعر جيد. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٠٣/٨).

(٧) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٧٧/٩).

المسألة الثانية: الحالة الاجتماعية

عاش ابن حزم كغيره في بيئة اجتماعية لها خصائصها الخاصة بها والتي تتميز عن غيرها من المجتمعات، والإنسان ابن عصره، فالمجتمع والبيئة والعادات التي تحيط بالإنسان لها أثرها الواضح على صقل شخصية الإنسان، ومواهبه وثقافته، سواء أكانت حسنة أم سيئة، وتغيير هذه العادات والطباع من أصعب الأشياء على المرء.

لقد عاش الإمام ابن حزم في المجتمع الأندلسي، الذي كان يموج بعناصر مختلفة، وألوان متباينة، وخليط من الأجناس واللغات والثقافات والديانات، وكان المجتمع الأندلسي يغلب عليه الرفاهية والغنى، ولك أن تتصور هذا المجتمع المترف كيف يكون حاله، ومن المعلوم أنه يغلب على هذه المجتمعات المترفة الاختلاط بين الجنسين والغناء والحب والعشق وشرب الخمور وغير ذلك.

وهذا الواقع الذي عايشه إمامنا ابن حزم كان له أبلغ الأثر في حياته، والتي كانت سبباً لإنتاجه العلمي الإصلاحي المنوع.

وجميع كتاباته كان لها ارتباط وثيق بالمجتمع الذي عاش فيه، يعرف ذلك من عاش مع كتبه وتصور واقعه الذي عاصره.

ويمكن أن أحصر الحديث في هذا الموضوع في العناصر الأساسية التالية:

- اللغات والسلالات في المجتمع الأندلسي في تلك الحقبة التي عاشها إمامنا ابن حزم كان فيهم العرب الخلص وفيهم البربر وكان فيهم حدة طبع ونفرة شديدة أحياناً، وفيهم من تهذبت طباعه وأرهفت أحاسيسه، فكان منهم إنتاج أدبي رفيع[١]. وفيهم الصقالبة[٢]، من سكان البلد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، وهم الذين كانوا يتخذون لخدمة القصور ،لأنهم اشتهروا بالقوة والتحمل[٣].

وظلت الأندلس تنعم بهذا الحال، فلما غيروا غير الله عليهم، وبدأت ظهور العصبية القبلية بين مسلمي الأندلس، وبدأت تنخر في المجتمع الإسلامي، وهذه كانت من أكبر العوامل التي أدت إلى ضعف المسلمين وتفرقهم، وكان هناك من نصارى أهل الذمة، وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حرية العقيدة وكرامة الحياة، في ظل أمن المسلمين وسماحة الشريعة. وكان فيها أيضا قوم من اليهود الذي أخرجهم الإسلام من الظلم الذي كان يمارس عليهم ومن الاضطهاد الذي عاشوه، ولكن اليهود هم

---

(١) انظر: ابن حزم حياته وعصره لأبي زهرة (ص: ١٦-١٧).

(٢) جيل من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن في كثير من شرقي أوروبة وهم المسمون الآن بالسلاف. انظر: المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون (٥١٩/١).

(٣) انظر: نفح الطيب للتلمساني (١٥١/٣).

اليهود، فالخيانة والخداع والكذب والظلم طبع متأصل فيهم لا يستطيعون الانفكاك عن هذه الصفات، وكان من أشرهم ابن النغريلة اليهودي(١) وقد كان لابن حز مناظرات مع هؤلاء، وكتب رسالة في الرد على يهودي(٢) ألف كتابا في تناقض القرآن، وقد رد عليه ردا مفحما وأخذ يرجمه بالحجج والبراهين حتى كشف عواره وأبطل كلامه.

- وكان من المظاهر الاجتماعية التي لم تكن في بلد من البلاد الإسلامية، ظهور نساء كثيرات من الأدبيات والشاعرات، وكان لهن الأثر البالغ في المجتمع الأندلسي، بل جاء في أخبار بعضهن أنهن كن يجدن بعض العلوم، وبخاصة فيما يتعلق بالنحو واللغة. مما جعل ابن حزم يحظى من ذلك بالشيء الكثير، كما ذكر ذلك عن نفسه أن ذلك أكسبه خبرة في أخبار النساء حتى قال: " ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل(٣) وجهي، وهن علمنني القرآن ورويننني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط"(٤).
- ومن مظاهر ذلك المجتمع حياة الترف، وقد تعددت صوره وأشكاله، وتبع هذا الترف كما هو معلوم ألوان من الخلاعة والمجون وشرب الخمور وانتشار الطرب والغناء، وتنافس في ذلك ملوك الطوائف، فلا تسأل بعد ذلك كيف أصبح حال تلك البلاد وحال الناس فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله (٥).

هذا تصور للمجتمع الذي عاش فيه الإمام ابن حزم؛ حاولت أن أذكر أهم المعالم فيه حتى نعرف طبيعة الإمام ابن حزم ومدى تأثره وتأثيره في هذا المجتمع الأندلسي. وبالله التوفيق.

---

(١) إسماعيل بن يوسف بن نغرلة اليهودي، من بيت مشهور في اليهود بغرناطة، أقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغني بها.انظر: نفح الطيب للتلمساني (٣٢٢/٤).

(٢) وتسمى رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي. انظر: رسائل ابن حزم (٤١/٣).

(٣) يقال: بقل وجه الغلام يبقل بقولا وأبقل: أي خرجت لحيته. انظر: المخصص لابن سيده (٤/ ٣٤١).

(٤) طوق الحمامة لابن حزم ص١٦٦.

(٥) انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للشنتريني (٣٨٨/١).

المسألة الثالثة: الحالة العلمية

في هذا العصر الذي عاش فيه الإمام ابن حزم كان للعلم مكانة مرموقة في بلاد الأندلس المفقودة، وقد وصف لنا الإمام ابن حزم الناحية العلمية في الأندلس حيث قال: " وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء فيه من تآليف أهله ما إن طُلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها"(١).

وذكر ابن حزم أن الأندلس وخصوصاً قرطبة تميز أهلها بالتمكن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والطب والحساب والنجوم، وحازوا من ذلك بالقدح المعلى وفاقوا كثيرا من الأقطار المجاورة لهم(٢).

وقد ازدهر العلم في هذه البلاد بعد فضل الله، على أيدي أمراء بني أمية ووفقوا في ذلك، وعلى يد العلماء الذين هاجروا إلى المشرق ثم عادوا إلى المغرب مثل أبي الوليد الباجي(٣)، وكذلك الذين هاجروا من المشرق إلى المغرب.

وفيما يلي بيان لأبرز المظاهر التي تدل على انتشار العلم وظهوره:

أولاً : اهتمام الأمراء بنشر العلم واقتناء الكتب وتشجيع العلماء على ذلك. يقول ابن حزم: " وأخبرني تليد(٤) الفتى، وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس، أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط "(٥).

ثانياً : كان من معالم المجتمع الأندلسي ظهور الأدب والشعر بين أهل الأندلس وكانت سمة سائدة بين جميع طبقاتهم، تجد هذا في دقة الأسلوب، وسلامة التعبير وجودة التصوير في جميع مؤلفاتهم في تلك الفترة الزمنية، حتى كتب الفقه والأصول والقراءات كلها لا تخلو من جمال التعبير مع الدقة والتحقيق العلمي فكانت بين لغة العلم الجافة ولغة الأدب الرفيع.

---

(١) رسائل ابن حزم (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها) (١٨٧/٢).

(٢) انظر: المصدر نفسه (١٧٤/٢-١٧٥).

(٣) سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، تولى القضاء في الأندلس، له مصنفات، منها: (السراج في علم الحجاج)، و(إحكام الفصول في أحكام الاصول). توفي بالمرية سنة ٤٧٤هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٣٦٥/١٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٣٥/١٨).

(٤) تلد الرجل إذا جمع ومنع. انظر: لسان العرب لابن منظور(٣/ ١٠٠).

(٥) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

وقد أثر هذا الجو الأدبي على كتب ابن حزم وشاعريته، يظهر ذلك في كتابه طوق الحمامة، والتلخيص لوجوه التخليص، وغيرها(١).

ثالثاً: أنواع التآليف وكتب التحقيق والإبداع في جميع الفنون والتخصصات:

وفي هذا الموضوع أفادنا الإمام ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس وبين لنا الثروة العلمية التي كانت بين يديه في عصره الذي عاش فيه وقد ذكر نماذج لأهم الكتب في كل فن من فنون العلم من الفقه، وفقه الحديث، والتفسير، وأحكام القرآن، وعلوم القرآن، والشعر، والنحو واللغة، والأخبار والسير والتواريخ، والطب، والفلسفة، والعدد والهندسة، وعلم الكلام(٢).

(١) انظر: ابن حزم حياته وعصره لأبي زهرة (ص: ١٤-١٧).

(٢) انظر: رسائل ابن حزم (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها)(٢/١٧٨-١٨٨).

المسألة الرابعة: الحالة الدينية

من خلال النظر إلى كثير من الشخصيات العلمية التي عاشت بالأندلس، والكتب التي أُلفت في تلك الحقبة من الزمان، يظهر أمران مهمان:

أولهما: المذهب السائد في تلك البلاد.

ثانيهما: الفكر والمعتقد المنتشر بينهم.

فأما الفقه في بلاد الأندلس فقد كان له رونقه الخاص، وكان المذهب السائد عندهم مذهب الإمام مالك.

وأما الفكر والمعتقد فكان أغلب أهل الأندلس يأخذون بمذهب أبي الحسن الأشعري(١) في منهجه وآرائه قبل رجوعه عنه إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد كان لأهل الاعتزال وجود في الأندلس وله منظرين ولهم فيه تآليف(٢)، ولكن هذا المذهب كان محارباً من قبل علماء الأندلس، حتى إنه لما توفي خليل بن عبد الملك(٣)، وكان من كبار المعتزلة(٤) وكان يصرح بمذهبه، أتى جماعة من الفقهاء وأخرجت كتبه، وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل(٥).

وكان لابن حزم من هذين الفكرين –الأشعري والمعتزلي– موقف الرفض والرد(٦)، وقد ألف في الرد عليهم وكشف بطلان مذهبهما، ولم يأل جهدا في ذلك–رحمه الله– كما هو بيَّن وواضح ذلك في كتابه الموسوم بالفصل في الملل والأهواء والنحل.

---

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن: مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. تلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. له مصنفات كثيرة، منها: (مقالات الإسلاميين)، و(الإبانة عن أصول الديانة). توفي سنة ٣٢٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٥/١٥).

(٢) انظر: رسائل ابن حزم (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها) (١٨٦/٢).

(٣) خليل بن عبد الملك بن كليب المعروف بخليل الفضلة: وكان خليل مشهورا بالقدر لا يتستر به، كان يقول بأن القرآن مخلوق. توفي سنة ٣٢٢هـ وقيل ٣٢٣هـ. انظر: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (١٦٥/١).

(٤) هم أصحاب واصل بن عطاء الغزالي، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، ويسمَّون بـ(أصحاب العدل والتوحيد)، وهم فرقة خالفت أهل السنة والجماعة ببعض الاعتقادات، منها: خلق أفعال العباد، خلق القرآن الكريم. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٣)، التعريفات للجرجاني ص٢٢٢.

(٥) انظر: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (١٦٥/١).

(٦) وخصوصا في توحيد أفعال الله، ولقد وفق ابن حزم في هذا الباب ووافق أهل السنة في غالب مباحثه، ولكنه زلت به القدم في توحيد الأسماء والصفات ووافق المعتزلة في بعض أقوالهم، ووافق الأشاعرة في عدم تعليل أفعال الله سبحانه وتعالى. انظر: ابن حزم وموقفة من الإلهيات لأحمد بن ناصر الحمد ص٤٧٤.

ب: التعريف بالإمام ابن حزم

تعتبر شخصية ابن حزم من الشخصيات التي كان لها أثر واضح في تاريخ الفقه الإسلامي، على الرغم من المحن التي واجهته وسببت له الكثير من القلق في ذلك الوقت، خاصة ما عرف عنه من خروج عن التيار الفقهي السائد آنذاك.

ولقد تميز الإمام ابن حزم بعقلية فذة، وبحافظة مميزة، حوت الكثير من المعارف والعلوم التي أهلته لأن يكون عالماً يشار إليه بالبنان مثبتاً بذلك وجوده في كل من علوم الشريعة والتاريخ والمذاهب والفرق، الأمر الذي جعل الكثير من أصحاب التراجم يتناولون الحديث عن شخصيته بتوسع، وعن نشأته وعلمه ومصنفاته الكثيرة، بالإضافة إلى المحن والمواقف التي أثرت في شخصيته وفقهه.

وسوف نقوم بدراسة موجزة عن حياة الإمام ابن حزم من خلال النظر في حياته الشخصية، وحياته العلمية، ومكانته عند العلماء، وذلك من خلال المسائل التالية:

المسألة الأولى: حياته الشخصية.

المسألة الثانية: حياته العلمية.

المسألة الثالثة: مكانته.

المسألة الرابعة: وفاته.

المسألة الأولى: حياته الشخصية[١]

الفرع الأول: اسمه وكنيته ولقبه

هو: عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفَارِسيُّ الأصل، اليزيديُّ بالولاء نسبة ليزيد بن أبي سفيان الأموي[٢]، ثم القُرطُبيِّ[٣]، أما كنيته: فأبو محمد، وبها عُرِف[٤]. أما ألقابه فابن حزم الظاهري، الأندلسي، اليزيدي، الفارسي، الأموي.

الفرع الثاني: نسبه

اختلفت أقوال العلماء في نسب ابن حزم على قولين رئيسين:

١- أنه فارسي الأصل وأن جده الأقصى في الإسلام يزيد مولى أبي سفيان[٥]، وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الاندلس في صحابة ملك الاندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام[٦]، هشام[٦]، المعروف بالداخل[٧].

٢- أنه أندلسي الأصل[٨].

والصحيح أنه فارسي الأصل، قرشي بالولاء ومما يؤيد هذا قول ابن حزم بإحدى قصائده:

---

(١) ترجم للإمام ابن حزم كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين، ومن هذه التراجم: جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٠٨، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للشنتريني: (١٦٧/١)، الصلة لابن بشكوال ص٣٩٥، بيان الوهم والإيهام لأبي الحسن بن القطان: (٦٤٥/٥)، اللباب في تهذيب الأنساب لأبن الأثير: (٤١٢/٣)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي: ص٤٦، وفيات الأعيان لابن خلكان: (٣ /٣٢٥)، العبر في خبر من غبر للذهبي:(٢٤١/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٨٤/١٨)، الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب: (٨٧/٤)، نفح الطيب للتلمساني: (٧٧/٢)، ابن حزم حياته وعصره وآراؤه الفقهية لأبي زهرة، الأعلام للزركلي (٢٥٤/٤).

(٢) يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب، أبو خالد الأموي، أخو الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، كان يزيد أحد فضلاء الصحابة من مسلمة الفتح، وهو أحد أمراء الأجناد بالشام، مات في خلافة عمر في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (٦٥٨/٦).

(٣) نسبة لقرطبة وهي مدينة عظيمة في بلاد الأندلس، كان ت مقراً لملوك بني أمية. وقرطبة تقع اليوم في إسبانيا. أما الأندلس فيطلق على القسم الإسلامي من إسبانيا من جنوبها. انظر: معجم البلدان للحموي (٣٢٤/٤).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٤/١٨).

(٥) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٢٥/٣).

(٦) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بصقر قريش، ويعرف بالداخل، الأموي: مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأحد عظماء العالم. توفي سنة ١٧٢هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٧٩/٤).

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٥/١٨).

(٨) انظر: جذوة المقتبس للحميدي (٩٧/١).

سما بي ساسان[١]دارأو بعدهم قريش العلي أعياصها والعنابس[٢]

فما أخرت حرب مراتب سؤددي ولا قعدت بي عن ذوي المجد فارس[٣]

كما أن ابن حزم الأعرف بنسبه خاصة أنه يعد من أكبر علماء النسب، فقد ألف كتاب جمهرة أنساب العرب. كذلك ما كان ابن حزم بحاجة إلى ادعاء نسب يزدهي به وقد ازدهى بحليتين هما العلم والجاه بين الناس.

الفرع الثالث: مولده وأسرته

حدد الإمام ابن حزم مولده بطريقة التعيين التي لاشك فيها حيث يقول القاضي صاعد[٤]: " كتب إلي إلي ابن حزم بخطه يقول: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة[٥] قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الفجر آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلاث مائة[٦]".

أما عن أسرة أبي محمد ابن حزم؛ فهو سليلُ بيت عزٍّ وشرف ورئاسة، فوالده هو: أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي كان من أهل العلم والأدب والبلاغة، معروفاً برجاحة عقله، وحسن تدبيره، قيل إنه توفي في حدود ٤٠٠ هـ، وقيل: ٤٠٢ هـ[٧]. وقد ذكر أبو محمد ابن حزم أن له أخاً يدعى: أبا بكر بن أحمد بن سعيد بن حزم، وذكر أنه مات في طاعون قرطبة سنة ٤٠١ هـ، وهو

---

(١) ساسان: أبو ساسان: كُنيةُ كِسْرى. انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادى ص٧١٠.

(٢) كان لحرب بن أمية عشرة أولَاد أربعة يسمون الاعياص. وأعياص قريش أي كرامهم. وستة يسمون العنابس والأسد يقال لها العنابس، وكان من العنابس أبو سفيان الجد الأعلى لابن حزم. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص: ٧٨-٧٩).

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عباس ص٢٤٦.

(٤) صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي، أبو القاسم: مؤرخ، بحاث، من كتبه: مقالات أهل أهل الملل والنحل، واصلاح حركات النجوم، وغيرها. توفي سنة ٤٦٢هـ. انظر: معجم الأدباء للحموي (٢٨٥٧/٦).

(٥) ربض منية المغيرة: المكان الذي يؤوى إليه ويستراح فيه، وهي أحد أرباض قرطبة. انظر: نفح الطيب للتلمساني للتلمساني (٤٦٦/١).

(٦) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص ٣٩٦.

(٧) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٢٨/٣).

حينها ابن اثنين وعشرين عاماً[١]. وذُكِر في بعض كتب التراجم والتاريخ والأدب اثنان من أسرة ابن حزم وهما من أبناء عمومة أبي محمد ابن حزم؛ وهما:

الأول: عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم. من أهل قرطبة، يكنى: أبا المغيرة. ذكره الحميدي[٢]، وقال: هو من المقدمين في الآداب والشعر والبلاغة [٣].

والثاني: أبو الوليد محمد بن يحيى بن حزم أحد أعيان أهل الأدب، وأجلى الناس شعراً[٤].

أما عن **أولاد أبي محمد ابن حزم** فقد ذُكر في كتب السير والتراجم أن له ثلاثة من الولد وهم:

أولاً: الفضل، أبو رافع القرطبي، كان نبيهاً فاضلا أديباً ذكياً يقظاً، وكتب بخطه علما كثيراً، وتوفي في معركة الزلاقة[٥] سنة ٤٧٩ هـ[٦].

ثانياً: المصعب، أبو سليمان القرطبي، ذُكر أنه كان على سَنَن سَلَفه من طلب العلم وحمله، ونقل بعض أهل التراجم عن بعض المؤرخين أنهم أخطؤوا في جعلهم اسمه: داود، وقال: إنه غلطٌ والصواب أنه المصعب[٧] ولم أقف على تاريخ وفاته.

ثالثاً: يعقوب، أبو أسامة كان من أهل النباهة والاستقامة، توفي سنة ٥٠٣ هـ[٨].

الفرع الرابع: نشأته

كان ابن حزم من بيت وزارة ورياسة ووجاهة ومال وثروة[٩]، عاش مع والده في قصر الخلافة، حيث كان أبو عمر أحمد بن سعيد من عظماء الوزراء، ولي الوزارة للحاجب المنصور ثم لابنه المظفر من بعده، وكان هو المدبر لدولتيهما، وأبوه هو الذي بنى لبني حزم مجدهم وذكرهم، ومن ذلك نعلم أن

---

(١) انظر: طوق الحمامة لابن حزم ص٢٥٩.

(٢) محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر: مؤرخ محدث، أندلسي. كان ظاهري المذهب. وهو صاحب (ابن حزم) وتلميذه. من كتبه (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس)، توفي سنة ٤٨٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/١٩).

(٣) انظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص٣٦١.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للشنتريني (٥٩٨/٤).

(٥) الزلاقة: وهي إحدى أراضي غرب الأندلس قريباً من مدينة قرطبة ، وعلى هذه الأرض وقعة شهيرة سميت باسم تلكم الأرض وقد كانت بين يوسف بن تاشفين وملك الإفرنج. انظر: معجم البلدان للحموي (١٤٦/٣).

(٦) انظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص٤٤٠.

(٧) انظر: التكملة لكتاب الصلة للقضاعي (١٨٧/٢).

(٨) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص٦٥١.

(٩) ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية لابن كثير (٩٢/١٢).

الإمام ابن حزم نشأ نشأة المترفين المنعمين، وعاش في كنف أبيه المربي الذي نشأه على الفصاحة والبلاغة، ورباه تربية قيادية لأن يكون وزيراً. ثم تربى في حجور العالمات المربيات من نساء القصر، حيث توفيت والدته فكفلته نساء القصر.

وبعد أن اشتدّ عوده التزم في مجلس أبي القاسم الأزدي. وبدأ أبوه يصحبه إلى المجالس العامة، فيأخذه إلى مجلس المظفر ابن أبي عامر الزاخر بالعلماء والشعراء، فنرى ابن حزم يتذوق الشعر على صغر سنه، هكذا نشأ هذا العالم الجليل في جو يسوده العلم والمعرفة حيث كان أبوه من أهل العلم والأدب والبلاغة.

ثم انتقل بعد ذلك إلى أبي علي الحسين بن علي الفاسي، وكان من أهل العلم والفضل، مع العقيدة الخالصة، والنية الجميلة، ولم يزل ان حزم يطلب ويختلف إلى العلماء، محتسبا حتى مات.

وكان لأبي علي أثر كبير في حياة الإمام ابن حزم وتربيته، وكان الإمام يعظمه ويحترمه ويبجله ويثني عليه كثيرا، يقول عنه ابن حزم:" كان أبو علي...عاقلاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ...فنفعني الله به كثيراً، وعلمت موقع الإساءة، وقبح المعاصي، ومات أبو علي- رحمه الله -في الطريق إلى الحج [١]".

قيل أن الإمام ابن حزم تفقه أولاً للشافعي ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال[٢].

ثم انتقل بعد ذلك كله إلى مدرسة الحياة العملية، والتي كان لها أعظم الأثر على حياته.

إلا أن النكبات التي حلت بابن حزم من وفاة زوجته التي أحبها، ثم وفاة والده الذي رعاه، وكذلك تهجيره عن قرطبة التي نشأ فيها وأحبها كل ذلك أثر على نفسية ابن حزم، ولقد وصف ذلك بقوله: " ثم انتقل أبي رحمه الله دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقاد والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت[٣] الفتنة، وألقت باعها، وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير -

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم ص٢٧٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي(١٨/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) أرزمت أي صوتت يقال أرزمت الناقة ترزم إرزاما والاسم الرزمة وهو صوت لا تفتح به فاها دون الحنين. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤١٥).

رحمه الله – ونحن في هذه الأحوال لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربع مئة، واتصلت بنا تلك الأحوال بعده حيث وقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي من قرطبة، وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسكن مدينة ألمرية(١).

كما أن ابن حزم أصيب بعِلّة في الطحال، حيث يقول: " لقد أصابتني علة شديدة ولدت فيَّ ربوا في الطحال شديداً، فولد ذلك علي من الضجر، وضيق الخلق، وقلة الصبر، والنزق(٢) أمرا حاسبت نفسي فيه إذا أنكرت تبدل خلقي واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح وإذا فسدت ولد ضده(٣)".

الفرع الخامس: صفاته وأخلاقه

أ – **الإنصاف:** حيث يحدِّثُ ابن حزم قائلاً: وأخبرك بحكاية لولا رجاؤها في أن يسهل بها الإنصاف عمن لعله ينافر ما ذكرناها، وهي أني ناظرت رجلا من أصحابنا في مسألة فعلوته فيها؛ لعدم فصاحة كانت في لسانه، وانقضى المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء فتطلبتها في بعض الكتب، فوجدت برهاناً صحيحاً يبيِّن بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس، فعرَّفته بذلك، ثم إني قد علمت على المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان، وإعلامه بأنه المُحقُّ وأني المبطل، وأني راجع إلى قوله، فهجم عليه من ذلك أمر مبهتٌ ! وقال لي: وتسمح نفسك بهذا ؟ فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا ما أخَّرته إلى غد، واعلم أن هذا الفعل يُكسبكُ أجمل الذكْرِ مع تحليك بالإنصاف الذي لا شيء يعدله، ولا يكن غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك ممن يغترُّ بك، ويثق بحكمك أنك غالب، وأنت بالحقيقة مغلوب، فتكون خسيساً وضيعاً جداً، وسخيفاً البتة، وساقطَ الهمَّة بمنزلة من يوهم نفسه أنه ملكٌ مطاعٌ، وهو شقيٌّ منحوس، أو في نصاب من يقال له إنَّكَ أبيض مليحٌ، وهو أسود مشوَّه، فيحصل مسخرةٌ ومهزأةٌ عند أهل العقول الذين قضاؤهم هو الحق، واعلم أن من رضي بهذا فهو مغرور، سبيلُه سبيلُ صاحب الأماني، وإنها بضائع الحمقى؛ والمغرى بها يلتذ فيها حتى إذا ثاب إليه عقله، ونظر في حاله علم أنه في أضاليل، وأنه ليس في يده شيء، وإياك والالتفات إلى من يتبجح بقدرته في الجدل فيبلغ به

---

(١) انظر: طوق الحمامة لابن حزم (ص٢٥١ –٢٥٢).

(٢) النزق :العجلة مع الطيش. انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٥٢/١٠).

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ص٧١.

الجهل إلى أن يقول: إني قادر على أن أجعل الحق باطلا، والباطل حقاً، فلا تصدق مثل هؤلاء الكذابين، فإنهم سفلة أرذال أهل كذب وشرٍّ ومخرقة[١].

ب – الذكاء والنباهة وسعة الحفظ: ومما ذكر في الثناء عليه في ذكائه وسرعة بديهته قول بعضهم: " وما رأينا مثله فيما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ [٢]".

ج – الوفاء: حيث يحدِّث ابن حزم قائلاً عن نفسه: " لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمتُّ إلي بلقية واحدة، ووهبني من المحافظة لمن يتذمَّم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً أنا له شاكر وحامد، ومنه مستمدٌّ ومستزيدٌ، وما شيء أثقل علي من الغدر، ولعمري ما سمحت نفسي قطُّ في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقلُّ ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إلي ذنوبة، ولقد دهمني من هذا غير قليل، فما جزيت على السَّوأى إلا بالحسنى، والحمد لله على ذلك كثيراً"[٣].

د– شدته وحدة طبعه: ومن المناسب أن يذكر في هذا المقام، ما عرف عن شدته، والتي كان لها وقع شديد في نفوس مخالفي ابن حزم، حيث رفضوه وحملوا عليه، على ما كان عنده من علم وخير كثير. حتى قال أبو العباس ابن العريف[٤]: " كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين"[٥].

وقد أرجع المهتمون بشخصية ابن حزم هذه الحدة والعنف في الخطاب والتناظر مع الآخر إلى أسباب، منها[٦]:

١. ما ذكره عن نفسه من المرض الذي انتابه، والذي ولد عليه الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر[٧].

---

(١) انظر: التقريب لحد المنطق لابن حزم (ص: ١٩٤-١٩٥).

(٢) انظر: جذوة المقتبس للحميدي ص٣٠٩.

(٣) طوق الحمامة لابن حزم ص٢١٠.

(٤) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي الصوفي الزاهد المعروف بابن العريف، كان من كبار الصالحين والأولياء المتورعين، توفي سنة ٥٣٦ هـ بمراكش. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٤٨/١١).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٩/١٨).

(٦) انظر: ابن حزم حياته وعصره لأبي زهرة (ص: ١٥، ١٨، ٢٦، ٧١، ١٩٧، ١٩٨).

(٧) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ص ٧١.

٢ . سوء ما لاقاه من أهل عصره، فقد اتهم في دينه وهجر من قومه هجرا غير جميل، وجافوه وآذوه وتجاهلوا قدره، وحاولوا إخمال ذكره، بل تجاوزوا الحد فأحرقوا ثمار فكره، حيث قاموا بإحراق كتبه علنا، وإن ذلك ليخرج الحليم عن حلمه(١).

٣ . ما عرف عن الأندلسيين بأن في طباعهم حدة كالمغاربة، فإن أرادوا أن يصفوا لطيفا من بينهم قالوا: هو على رقة أهل المشرق!!، والإنسان ابن بيئته بالطبع(٢).

لكن مع ذلك كله، فإن حدة ابن حزم سليمة الطوية، طيبة العاقبة، وهي منه صلابة في الدين وغيرة على الحق.

(١) انظر: ابن حزم حياته وعصره لأبي زهرة (ص: ١٩٧– ١٩٨).

(٢) انظر: معجم فقه ابن حزم الظاهري للكتاني ص ٣٤.

المسألة الثانية: حياته العلمية

الفرع الأول: قصة تعلمه العلم

ذكر المؤرخون قصة تفيد السبب الذي دعاه إلى الاجتهاد في التحصيل وطلب العلم، قالوا: إن أبا محمد ابن حزم كان جالسا في درس يسمع من الشيخ ويتعجب، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه أجابوا فيها فاعترض على الجواب ولم يرتضه، فقال له بعض الحاضرين: هذا العلم ليس من منتحلاتك، فقام وقعد ودخل منزله فعكف على طلب العلم، وما كان بعد أشهر قريبة، حتى قصد إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها: أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب[١].

الفرع الثاني: طلبه للعلم

إن الظروف التي أحاطت بابن حزم كانت مشجعة له على التعلم والتحصيل، بدأَ بحرص والده عليه، ومن ثم الأسرة التي ترعرع فيها يقول المقري [٢]عنها: "وبنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب[٣]". ولما نشأ فيه من تنعم ورفاهية كان يتيح له التفرغ لطلب العلم، ولما رزقه الله من ذكاء مفرط وذهن سيال كان ييسر عليه الحفظ والفهم الدقيق، وتوفرت مكتبة بين يديه فيها من الكتب النفيسة والكثيرة ينهل منها[٤]. كل ذلك وغيره جعل إمامنا من المبرزين في العلم المتخصصين فيه.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩١/١٨). وانتشرت بين المؤرخين قصة أخرى حصلت لابن حزم تفيد هي الأخرى أنه طلب العلم متأخرا، وهي كما يرويها تلميذه الإمام أبو محمد عبدالله بن محمد والد أبي بكر ابن العربي، حيث يقول: " أخبرني أبو محمد ابن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قم فصل تحية المسجد، وكان قد بلغ ستا وعشرين سنة، قال: فقمت وركعت فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة، دخلت المسجد فبادرت بالركوع، فقيل لي اجلس ليس ذا وقت صلاة وكان بعد العصر، قال: فانصرفت وقد حزنت وقلت للأستاذ الذي رباني دلني على دار الفقيه أبي عبدالله ابن دحون. قال: فقصدته وأعلمته بما جرى، فدلني على موطأ مالك، فبدأت به عليه، وتتابعت قراءتي عليه، وعلى غيره نحواً من ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٩/١٨).

(٢) أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني، المؤرخ الأديب الحافظ، صاحب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب). توفى سنة ١٠٤١هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٢٣٧/١).

(٣) نفح الطيب للتلمساني (٦٢٠/١).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٦/١٨).

فقد كان أول طلب أبي محمد ابن حزم للعلم هو في صغره فكان أول ما بدأ به ابن حزم من طلب العلم في صغره هو قراءة القرآن، ورواية الشعر، وتعلم الخط، كل ذلك على أيدي نساء في قصر أبيه من الجواري والقريبات. ثم تلا ذلك سماع أبي محمد ابن حزم للحديث وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور[١] قبل الأربعمائة [٢]، فروى عن بعض مشايخه موطأ مالك، والمدونة، وبعض المسانيد، وفيه دليل على أنه كان مالكي المذهب، ثم تحول شافعياً، وأقام عليه زمناً، ثم تحول إلى مذهب أهل الظاهر فأقبل على قراءة العلوم، وتقييد الآثار والسنن، ونافح عن مذهبه حتى لقي الله[٣].

الفرع الثالث: شيوخه

درس أبو محمد ابن حزم على جمٍّ غفيرٍ من علماء عصره، أخذ عنهم علم الحديث، ومعرفة الرجال، والفقه، والأدب، والمنطق، وهؤلاء العلماء الأجلاء كثر، وليس المقام مقام استقصائهم في هذه العجالَة، لذلك استغنيت بذكر أشهرهم عن إيراد جملتهم؛ فكان منهم:

١- أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي[٤] الذي أخذ عنه الحديث والنحو واللغة والجدل والكلام وقد كان أديبا نبيلاً ذكياً، وشاعر مطبوعا، وكان يقول عنه: " كان شيخنا وأستاذي[٥]".

٢- يحيى بن مسعود بن وجه الجنة[٦] فهو أعلى شيخ عنده.

٣- أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور أول شيخ سمع منه ابن حزم.

---

(١) أَبُو عُمَرَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّد بن أَحْمَدَ بن سَعِيد بن الحُبَاب الأُمَوِيُّ مَوْلاَهُمْ، القُرْطُبِي، وهو أَكْبَر شَيْخٍ لابْنِ حَزْم. توفي سنة ٤٠١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء لِلذَهبي (١٤٨/١٧).

(٢) انظر: جذوة المقتبس للحميدي ص٣٠٨.

(٣) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي (ص: ٤٣-٤٤).

(٤)عبد الرحمن بن محمد بن خالد الأزدي ، أبو القاسم المصري، ويعرف أيضا بالصَّواف، إمام حافظ، عالم بالرجال، والأدب، والنسب، توفي سنة ٤١٠ هـ. انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لليحصبي (٢٢٣/٢).

(٥) طوق الحمامة لابن حزم ص٢٧٣.

(٦) أبو بكر، يحيى بن عبدالرحمن بن مسعود بن موسى، القرطبي، عرف بابن وجه الجنة. كان يلتزم صنعة الخز. مات في سنة ٤٠٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٤/١٧).

٤- عبد الله بن محمد بن يوسف، الشهير بابن الفرضي[١]، أحد الحفاظ.

٥- عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمذاني[٢].

الفرع الرابع: تلاميذ ابن حزم:

لم تذكر كتب التراجم عدداً كبيرا من تلاميذ ابن حزم ويرجع ذلك لتأليب علماء عصره ضده بسبب مخالفته لهم في المذهب، وحدته، وسلاطة لسانه في مجادلتهم، وكذلك الاضطهاد السياسي الذي تعرض له، ومما لاشك فيه أيضا أنه كان موضع حسد من بعضهم لغزارة علمه، لذلك نهوا عوامهم من الإصغاء له، وحذروا سلاطينهم من فتنته.

ويمكن ذكر بعض تلاميذه، مثل: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي، وابنه أبو رافع الفضل، وصاعد بن أحمد بن عبد الرحمن وغيرهم.

الفرع الخامس: مؤلفاته

يعد ابن حزم من أكثر علماء الإسلام تأليفاً وتصنيفاً، فقد خلف وراءه مكتبة موسوعية ضخمة ضمت مجلداتها كثيراً من أنواع العلوم الشرعية، وقد بلغت مصنفاته حوالي أربع مئة مجلد تشمل على قريب من ثمانين ألف ورقة كما ذكر ابنه أبو رفع[٣]، وقد ذكر الذهبي[٤] له في السير ستة وسبعين[٥]،

---

(١) أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الأندلسي المعروف بابن الفرضي؛ كان فقيها عالماً في فنون من العلم. توفي سنة ٤٠٣ هـ. انظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص ٢٤٦.

(٢) المعروف بأبي القاسم ابن الخرَّاز الوهراني ، رجل صالح ، صاحب سنة ، كان يتكسب بالتجارة ، توفي سنة ٤١١ هـ. أنظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص٣٠٥.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٧/١٨).

(٤) محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين، أبو عبد الله، الحافظ المؤرخ، العلامة المحقق، من آثاره: (سير أعلام النبلاء)، و(الكبائر)، و(تذكرة الحفاظ)، وغيرها كثير. توفي سنة ٧٤٨ هـ.انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩ / ١٠٠)، ذيل التقييد للفاسي (٥٣/١).

(٥) وهي:(الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)، (الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام)، (المجلى)، (المحلى في شرح شرح المجلى بالحجج والآثار)، (حجة الوداع)، (قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي)، (الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها)، (الجامع في صحيح الحديث)، (التلخيص والتخليص في المسائل النظرية)، (ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي)، (مختصر الموضح)، (اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وداود)، (التصفح في الفقه)، (التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين)، (الإملاء في شرح الموطأ)، (الإملاء في قواعد الفقه)، (در القواعد في فقه الظاهرية)، (الإجماع)، (الفرائض)، (الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي)، (الإحكام لأصول الأحكام)، (الفصل في الملل والنحل)، (الرد على من اعترض على الفصل)، (اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين)، (الرد على ابن زكريا الرازي)=

كما أحصى غيره أكثر من ذلك[١].

الفرع السادس: عقيدته

لن أتعرض في هذا الفقرة الوجيزة لمناقشة آراء الإمام ابن حزم العقدية، ولكن سأعرض باختصار لأهم ما قيل عن عقيدته وأهم الآراء التي اعتقدها، ولعل أهم ما يثير الغرابة ويستوقفنا في عقيدة ابن حزم الظاهري، هو موقفه من الأسماء والصفات، التي كان ينبغي أن يكون موقفه منها موافقاً لمنهج أهل الظاهر في الأخذ بظاهر النصوص وعدم التأويل، فكانت له بذلك آراء واجتهادات في مسائل الأسماء الصفات وبعض من مسائل العقيدة، نبه عليها بعض الباحثين ممن تصدوا لدراسة موقف الإمام ابن حزم منها، يقول ابن كثير[٢]: "والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهريا حائرا في الفروع

=(الترشيد في الرد على كتاب الفريد)، (الرد على من كفر المتأولين من المسلمين)، (مختصر في علل الحديث)، (التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية)، (الاستجلاب)، (نسب البربر)، (نقط العروس)، (مراقبة أحوال الإمام)، (من ترك الصلاةعمدا)، (رسالة المعارضة)، (قصر الصلاة)، (رسالة التأكيد)، (ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس)، (فضائل الأندلس)= =(العتاب على أبي مروان الخولاني)، (رسالة في معنى الفقه والزهد)، (مراتب العلماء وتواليفهم)، (التلخيص في أعمال العباد)، (الإظهار لما شنع به على الظاهرية)، (زجر الغاوي)، (النبذ الكافية)، (النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد)، (الرسالة اللازمة لأولي الأمر)، (مختصر الملل والنحل)، (الدرة في ما يلزم المسلم)، (مسألة في الروح)، (الرد على إسماعيل اليهودي)، (النصائح المنجية)، (الرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد)، (مسألة الإيمان)، (مراتب العلوم)، (بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل)، (ترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين)، (عدد ما لكل صاحب في مسند بقي)، (تسمية شيوخ مالك)، (السير والأخلاق)، (بيان الفصاحة والبلاغة)، (مسألة هل السواد لون أو لا)، (الحد والرسم)، (تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر)، (شيء في العروض)، (مؤلف في الظاء والضاد)، (التعقب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي)، (غزوات المنصور بن أبي عامر)، (تأليف في الرد على أناجيل النصارى)، (رسالة في الطب النبوي)، (مقالة العادة)، (مقالة في شفاء الضد بالضد)، (شرح فصول بقراط)، (بلغة الحكيم)، (حد الطب)، (اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة)، (الأدوية المفردة)، (مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب)، (مقالة في النخل).

انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١٩٣-١٩٧).

(١) كأبي عبد الرحمن بن عقيل، والدكتور إحسان عباس.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوبن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبوالفداء، عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه. من كتبه: (البداية والنهاية)، و(شرح صحيح البخاري)، و(طبقات الفقهاء الشافعيين)، وغيرها، توفي سنة ٧٧٤هـ. انظر: ذيل التقييد للفاسي (١/٤٧١)، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص٢٣٨.

لا يقول بشئ من القياس لا الجلي ولا غيره، وهذا الذي وضعه عند العلماء وأدخل عليه خطأً كبيرا في نظره وتصرفه، وكان مع هذا من أشد الناس تأويلا في باب الأصول" [١].

ويمكن تلخيص عقيدة الإمام ابن حزم مما أورده الباحث أحمد بن ناصر الحمد في خاتمة بحثه "ابن حزم وموقفه من الإلهيات" وذلك كالتالي:

١. يوافق ابن حزم المعتزلة في إثبات الأسماء التي سمى الله بها نفسه، مجردة فلا يشتق له منها صفات، والصحيح خلاف ذلك فتثبت له الأسماء ويشتق له منها صفات؛ لأنها ليست أعلاما محضة.

٢ . يرجع ابن حزم كثيرا من الصفات إلى الذات بعد أن يثبت ألفاظها الواردة كالوجه واليد والعين والعز والعزة والكبرياء وغيرها.

٣. يخالف ابن حزم منهجه الأخذ بظواهر النصوص ويذهب إلى التأويل فيؤول الصورة والأصابع والساق والاستواء، والصحيح إثبات تلك الصفات لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

٤. يوافق ابن حزم الأشاعرة في القول بعدم تعليل أفعال الله.

٥. يوافق ابن حزم مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الماهية لله تعالى والنفس والذات، ويوافقهم في إثبات رؤية الله رؤية حقيقية.

٦. يوافق أهل السنة في إثبات كلام الله.

٧. يوافق أهل السنة في غالب مباحث أفعال الله تعالى فيثبت قضاء الله عزوجل وقدره[٢].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٩٢/١٢).

(٢) انظر: ابن حزم وموقفه من الإلهيات لأحمد بن ناصر الحمد. وهناك تعليق لابن تيمية على اعتقاد ابن حزم. انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٨/٤-٢٠).

المسألة الثالثة: مكانة الإمام ابن حزم

لا شك أن أبا محمد ابن حزم تسنَّم رتب العلا في فُنونٍ شتَّى، وحاز قصب السبْق في وقته في الذكاء والفطنة وسرعة البديهة، وسعة الحفظ، ولذلك لهجت له الألسن بالثناء، وارتفعت له الأكف بالدعاء، كيف لا يكون ذلك وهو من هو في اتّباَعِ أثر المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذّبِّ عن سنته.

ولقد أنصفه جمع من العلماء الأجلاء بمقولات عظيمة، تبين مكانته عند أهل العلم والبصيرة.

قال الغزالي(١): "وجدت في أسماء الله كتاباً لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه"(٢).

ويقول الإمام الذهبي: " الإمام الأوحد البحر، ذو الفنون والمعارف، الفقيه الحافظ، المتكلم الأديب، الوزير الظاهري صاحب التصانيف"(٣).

ويقول الحافظ ابن كثير: " واشتغل بالعلوم النافعة الشرعية، وبرز فيها وفاق أهل زمانه، وصنف الكتب المشهورة، يقال: إنه صنف أربعمائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان أديباً طبيباً شاعراً فصيحاً، له في الطب والمنطق كتب، وكان من بيت وزارة ورئاسة ووجاهة، ومال وثروة(٤)".

وقال أبو القاسم صاعد بن أحمد: " كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار"(٥).

وقال جلال الدين السيوطي(٦): " كان صاحب فنون وورع وزهد واليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار"(٧).

---

(١) أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، من آثاره: (إحياء علوم الدين)، و(كيمياء السعادة)، توفي سنة ٥٠٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٣٢٢)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٩١/٦).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٧/١٨).

(٣) المصدر نفسه (١٨٤/١٨).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٩٢/١٢).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٧/١٨).

(٦) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين السيوطي، جلال الدين، أبو الفضل: إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو ٦٠٠ مصنَّفا، منها: (الأشباه والنظائر)، و(الاقتراح)، و(تدريب الراوي) وغيرها، توفي سنة٩١١هـ. انظر: النور السافر للعيدروس ص٥١، الكواكب السائرة للغزي (١/ ٢٢٧).

(٧) طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٣٥.

ولولا حِدَّةُ طبع الإمام ابن حزم ووقيعتَه في أكابر العلماء لما انصرف عنه الكثير، ولأقبل القاصي والداني لَلتَّهل من معين علمه، وبديع قوله، ولأجل هذا يقول الذهبي: " وفي الجملة فالكمال عزيز، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزله مكباً على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار[١]".

ولقد كان الإمام ابن حزم وزيرا لثلاثة من الأمراء[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٧/١٨).

(٢) وهم: عبد الرحمن المرتضى، ثم تولى الوزارة لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار، ثم لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك.

المسألة الرابعة: وفاة الإمام ابن حزم

توفي الإمام ابن حزم بعد حياة مليئة بالعلم والتعليم، والتأليف النافع، إضافة إلى المشاركة في الحياة السياسية والعلمية، تاركاً وراءه الكثير من المؤلفات والتصانيف النافعة القيمة، بل إنه حفظ لنا الكثير من الآثار والأخبار التي لا تكاد تجدها إلا في كتبه.

رحل الإمام ابن حزم تاركاً خلفه طلاب العلم والعلماء قاطبة، مذهولين من شخصيته وما كان يملكه من عقلية فذة وفقه فريد، على ما كان يؤخذ عليه من شذوذ في بعض المسائل.

توفي الإمام أبو محمد ابن حزم في بلدة لُبلة[١] وكانت وفاته، آخر النهار من يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر شعبان عام ٤٥٦ هـ، وكان عمره إذ ذاك اثنتين وسبعين سنة إلا شهراً، قال صاعد: "ونقلت من خط ابنه أبي رافع: إن أباه توفي رحمه الله عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ستٍّ وخمسين وأربع مائة. فكان عمره رحمه الله إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً[٢] رحمه الله" [٣].

وقيل إنه توفي مشرداً عن بلده من قبل الدولة وذلك في بادية لبلة. ومنهم من قال إنه توفي في قريته(منت ليشم)[٤].

فرحم الله الإمام ابن حزم رحمة واسعة على ما قدم للأمة من فقه وعلم، شهد له به أن يغفر له خطأه في اجتهاداته التي لم يقر عليها، ولعل تلك الزلات والأخطاء غاصت في بحر حسناته، فكل يؤخذ من قوله ويرد، إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

---

(١) لُبلة : مدينة قديمة غربي الأندلس وهي من المدن الكبار، وتقع غرب إشبيلية وقرطبة، وقد نزلها العرب أول ما دخلها طارق بن زياد .وتقع اليوم في إسبانيا. انظر: معجم البلدان للحموي (١٠/٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١١/١٨). فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهرا.

(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ص ٣٩٦.

(٤) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٨٧/٣). ومنت ليشم: هي قرية من أعمال لبلة، وكانت ملكاً لابن حزم، وكان يتردد عليها. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٨٩/٣).

ج: دراسة موجزة عن كتاب الإحكام لابن حزم

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولى: توثيق كتاب الإحكام.

المسألة الثانية: منهج ابن حزم في كتاب الإحكام.

المسألة الثالثة: مكانه كتاب الإحكام.

المسألة الرابعة: الأعمال التي تتابعت خدمة لكتاب الإحكام.

المسألة الأولى: توثيق كتاب الإحكام

الفرع الأول: من حيث عنوان الكتاب

لا يوجد خلاف بين أهل العلم حول اسم الكتاب الذي سماه به مؤلفه وهو(الإحكام في أصول الأحكام).

الفرع الثاني: من حيث النسبة

لا شك في صحة نسبة هذه الكتاب إلى الإمام ابن حزم ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

١. خط الإمام ابن حزم الذي لا يخفى على الباحثين، حيث أن المخطوطات الموجودة للكتاب كما ذكر ذلك بعض من حقق الكتاب هي بخط الإمام ابن حزم.

٢. ذكر الإمام ابن حزم نفسه لهذا الكتاب في بعض مصنفاته الأخرى ففي كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، يقول الإمام ابن حزم: " وأما ما اجتمعت عليه الجماعات العظيمة من أرائهم مما لم يأت به نص عن الله عز و جل ولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطل عند الله بيقين، لأنه شرع في الدين ما لم يأذن الله عز و جل، وقال على الله تعالى ما لم يقله، وبرهان ذلك أنه قد يعارض ذلك قول آخر قالته جماعات مثل هذه، والحق لا يتعارض، والبرهان لا يناقضه برهان آخر، وقد تقصينا هذا في كتابنا المرسوم بكتاب الأحكام في أصول الأحكام فأغنى عن ترداده والحمد لله رب العالمين"(١).

٣. جلُّ من ترجم للإمام ابن حزم ذكر هذا الكتاب من مصنفاته.

٤. جماهير من كتب في علم أصول الفقه بعد ابن حزم ذكر هذا الكتاب ونسبه إليه، بل ونقل منه.

٥. طبع الكتاب منذ أكثر من مئات السنين، ولم يجرؤ أحد على الإقدام على إنكار نسبة الكتاب إلى صاحبه.

ويرى الباحث أن كل هذا يؤكد لنا نسبة الكتاب –(الإحكام في أصول الأحكام)– إلى الإمام ابن حزم.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١٤١/٣).

المسألة الثانية: منهج ابن حزم في كتاب الإحكام

قصد الإمام ابن حزم في كتابه الإحكام بيان الجمل في مراد الله عز وجل فيما كلف به المسلم من العبادات، والحكم بين الناس بالبراهين التي أحكمها في هذا الكتاب. الذي جعله جامعاً للحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الدين، وجعله أبواباً بلغت الأربعين تسهيلاً على القارئ والباحث للبحث عما أراد الوقوف عليه منه.

وهذه لمحة عن بعض المحاور التي دارت حولها أبواب هذا الكتاب: في إثبات حجج الفعل وبيان ما يدركه على الحقيقة، وبيان غلط من ظن في العقل ما ليس فيه، في كيفية ظهور اللغات التي يعبر بها عن جميع الأشياء ويتخاطب بها الناس، في أصول أحكام الديانة وأقسام المعارف، وهل على النافي دليل أولاً، في معان البيان، في القول بموجب القرآن، في الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة والأخذ بالظاهر منها وحمل كل ذلك على الوجوب والفور، أو الندب أو التراخي، في المجاز والتشبيه، في المتشابه من القرآن والمحكم، والفرق بينه وبين المتشابه المذكور في الحديث بين الحلال والحرام، في الإجماع، في استصحاب المال وبطلان العقود والشروط إلا ما نص عليه منها أو أجمع على صحته، وهو باب من الدليل الإجماعي، في ذم الاختلاف والنهي عنه، في أن الحق في واحد وسائر الأقوال كلها خطأ، في الشذوذ ومعنى هذه اللفظة وإبطال التمويه بذكرها، في تسمية الفقهاء المعتد بهم من الخلاف بعد الصحابة رضي الله عنهم، في الدليل النظري والفرق بينه وبين القياس، في صفة طلب الفقه، وصفة المفتي، وصفة الاجتهاد وما يلزم لكل واحد طلبه في دينه، في شرائع الأنبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أتلزمنا أم لا، في الاحتياط وقطع الذرائع، في إبطال الاستحسان والاستنباط والرأي، في إبطال التقليد، في دليل الخطاب، في إبطال القياس، في إبطال العلل التي يدعيها أهل القياس والفرق بينها وبين العلل الطبيعية التي هي العلل على الحقيقة والكلام في الأسباب والأغراض والمعاني والعلامات والأمارات، في الاجتهاد ما هو وبيانه ومن هو معذور باجتهاده ومن ليس معذوراً، ومن يقطع عليه أنه خطأ عند الله عز وجل فيما أداه إليه اجتهاده، ومن لا يقطع عليه أنه مخطئ عند الله عز وجل وإن كان هناك خلاف معه.

وقد تميز كتاب الإمام ابن حزم رحمه الله بميزات أجملها في النقاط التالية:

١- تجنب المباحث الكلامية.

٢- وضوح المعنى وسهولة العبارة وجزالة اللفظ وعذوبته.

٣- بناء الفروع على الأصول والإكثار من الأمثلة الفقهية.

٤- الإعتناء بالجانب الحديثي بتمحيص الأسانيد ونقد الأخبار.

٥- ذبه في كتابه عن فقه السلف والإنكار على المبتدعة الذين أحدثوا المنكرات في علم أصول الفقه.

٦- الإهتمام الشديد بالبراهين والأدلة عملاً.

٧- منهجيته في ممارسة الإجتهاد والبعد عن التقليد الأعمى.

٨- تأكيده في مواضع كثيرة من كتابه على اسس الإستدلال الصحيح وتأكيده على مبدأ "دلائل الحق لاتتعارض".

٩- التقصي واستقراء الحجج وتمحيصها حجة حجة.

المسألة الثالثة: مكانة كتاب الإحكام

إن سبب اهتمام الباحثين بالكتاب عائد إلى أن كتاب الإحكام هو الكتاب الأصولي الظاهري الوحيد الذي نجا من آفات الأيام، ولذلك فهو مرجع مهم لتوثيق المعلومات والتأكد مما ينسبه الأصوليون لأهل الظاهر. كما اعتبر صاحب كتاب "التجديد والمجددون " – وهي رسالة ماجستير في الأصل– الإمام ابن حزم من المجددين في علم أصول الفقه بسبب كتابه، فيقول: " وابن حزم من أولئك الأقلين الذين تركوا آثاراً عظيمة فيمن بعدهم واعتنوا بتقويم المسالك وإصلاح الخطط، مع استحواذ على مؤهلات الإصلاح: من ذكاء مفرط، وعقل مبتكر، وقلب قوي، وعلم غزير واسع، حتى وصف بأنه رأس في علوم الإسلام، متبحر في النقل عديم النظير. لما كان الأمر كذلك كان لابد أن يكون لابن حزم نصيب وافر بين الأئمة المجددين الذين لهم آثار جسام في علوم الإسلام عموماً وفي أصول الفقه خصوصاً ، وإنا لعلى قناعة تامة بأنه أول أصولي نابه بعد الشافعي، إذ لا نعرف بين الشافعي وابن حزم كتاباً يسامق كتاب "الإحكام" وهذه حقيقة قد جعلنا بحثنا هذا برهانا عليها"(١).

ويقول أبو محمد بن علي الكتاني: " ولابن حزم مصنفات حافلة في جملة من العلوم بلغت حوالي الأربعمائة. أهمها: " الإحكام في أصول الأحكام، والفصول في الملل والنحل والإيصال والمحلى"(٢).

ويقول الشيخ مقبل بن هادي الوادعي(٣): " وكتابه "الإحكام في أصول الأحكام" يعتبر من أحسن كتب أصول الفقه، وكتب أصول الفقه تقول: هذا جائز، وافعل ولا تفعل، وهذا يقتضي الوجوب، وهذا يقتضي الإباحة إلى غير ذلك، وقليل ما يأتون بالأدلة بخلاف أبي محمد بن حزم –رحمه الله تعالى– فإنه يذكر الأدلة من كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع التصحيح للتي هي صحيحة، والتضعيف للأحاديث التي لا يراها صحيحة، وهو في مسألة التصحيح والتضعيف كغيره من العلماء، ونقله حجة"(٤).

---

(١) التجديد والمجددون في أصول الفقه لعبد السلام بن محمد ص١١٩.

(٢) وصف المحلى(بحث صغير) للكتاني ص٥.

(٣) مقبل بن هادي بن مقبل بن قائدة الهمداني الوادعي الخلالي، من قبيلة آل راشد. من مؤلفاته: (الطليعة في الرد على غلاة الشيعة)، و(الصحيح المسند من أسباب النزول)، وغيرها من الكتب النافعة. توفي ١٤٢٢هـ. بمدينة جدة، ودفن بمكة المكرمة بناء على وصيته. انظر: موسوعة مواقف السلف لأبي سهل المغراوي (٥٠٠/١٠).

(٤) المقترح في أجوبة بعض أسئلة المصطلح لمقبل الوادعي ص١٨٩.

المسألة الرابعة: الأعمال التي تتابعت خدمة لكتاب الإحكام

الفرع الأول: طبعات الكتاب

١. طبعة دار الآفاق، بيروت، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، تقديم الدكتور إحسان عباس، وهي أفضل نسخة موجودة.
٢. طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

هناك طبعة لم تخرج بعد وهي قيد التحقيق للشيخ أبو حفص سامي الأثري.

الفرع الثاني: الدراسات التي تناولت كتاب الإحكام

من خلال البحث والنظر في فهارس المكتبات لم يجد الباحث رسالة خاصة في كتاب الإحكام بل هناك رسائل عامة في الإمام ابن حزم دون تحديد أو تخصيص كتاب الإحكام بالبحث، كرسالة " ابن حزم الأصولي " للدكتور: عبدالله بن عبدالله الزايد، ولكن وجد الباحث بعد البحث أن هناك من ألف حول كتاب الإحكام ككتب لا كرسائل علمية، وسوف أذكر بعض من تلك البحوث الخاصة بفن أصول الفقه على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر:

١. الإسهام ببيان منهج ابن حزم في تعليل الأخبار من خلال "كتابه الإحكام" لمؤلفه: بدر العمراني الطنجي.
٢. تأصيل ما أنكره ابن حزم على الفقهاء من خلال كتابه الإحكام. إعداد/د. عبدالمحسن بن محمد الريس.

ثانياً: التعريف بالإمام الشوكاني وبكتابه

(إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)

أ: دراسة موجزة لعصر الإمام الشوكاني.

ب: التعريف بالإمام الشوكاني.

ج: دراسة موجزة عن كتاب إرشاد الفحول للإمام الشوكاني.

أ: دراسة موجزة لعصر الإمام الشوكاني

عاش الشوكاني في الفترة الممتدة ما بين(١١٧٣-١٢٥٠هـ)، وقد امتاز عصره بخصائص وأحداث بارزة تفاعل معها الشوكاني، فأثّر فيها وتأثر بها، وعملت على تكوين شخصيته العلمية التي استطاعت أن تفيد، بل وتتجاوز بروحها التجديدية كثيراً من جوانب المنظومة المعرفية والفقهية لزمانه، وقد تكونت هذه الشخصية من خلال تفاعلها مع الجوانب الآتية: الحالة السياسي، والحالة الفكرية والعلمية، والحالة الدينية، والحالة الاجتماعية، والحالة الاقتصادية، والحالة الإدراية، والحالة العلمية.

وسنوضح هذا المطلب في المسائل التالية:

المسألة الأولة: الحالة السياسية.

المسألة الثانية: الحالة الفكرية والعلمية.

المسألة الثالثة: الحالة الدينية.

المسألة الرابعة: الحالة الاجتماعية.

المسألة الخامسة: الحالة الاقتصادية والإدارية.

المسألة الأولى: الحالة السياسية

لم تخل اليمن من أمراض القوى الإسلامية الكبرى، فوجدت صراعات داخلية في ظل نظام الحكم الزيدي الإمامي: صراع أسري على الإمامة، وصراع بين دعاة الإمامة من أهل البيت، وصراعات فيما بين القبائل ذات الشوكة من ناحية، وفيما بينها وبين دولة الإمامة من ناحية أخرى، وكان حكم الإمامة يتسم تارة بالعدل وتارة أخرى بالجور، وأحياناً بالقوة، وأحياناً بالضعف.

ولأخلاقيات وزراء الإمام ودعاة الإمامة وطبيعة سلوك الإمام تأثير كبير بالإيجاب أو السلب على طبيعة النظام الحاكم(١). ولقد اتسمت الحياة السياسية في عصر الإمام الشوكاني بعدم الاستقرار، وكثرة الصراعات وذلك على المستويين: المحلي(٢)– اليمن– والعالمي.

ومما مظاهر الحياة السياسية في اليمن أيضاً صراع النظام الإمامي مع الحركات الإنفصالية، يقول حسين العمري: " كانت مشكلة القبائل اليمنية إحدى أعوص وأقدم المشاكل التي كانت تواجهها أية حكومة مركزية في صنعاء، وذلك بما تثيره من عصيان ضدّها، أو الهجوم على بعض المدن، أو المناطق القريبة أو البعيدة عن العاصمة التي لم تسلم هي نفسها من الحصار أو النهب أو القتل"(٣).

هذا إضافة إلى فساد مؤسسة القضاء لاسيما خارج العاصمة صنعاء بسبب تولي عديمي الكفاءة العلمية لمنصب القضاء، فانتشرت الرشوة، وتعرض المنصب للبيع والشراء، وأصبح أداة من أدوات تنفيذ المظالم والعون عليها(٤).

والجدير بالملاحظة، أن الأحوال السياسية في بلاد اليمن لم تكن بمعزل عما يجري حولها في الأقطار الإسلامية والعالمية. فالدولة العثمانية كانت تمر بأيامها الأخيرة بسبب وجود دول إسلامية مستقلة عنها، واستفحال الصراعات المذهبية، وتدخّل الدول الأوروبية، مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا، في منطقة الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط بهدف نهب خيرات البلاد الإسلامية، والسيطرة على الطريق التجاري المؤدي إلى الهند عبر المياه العربية.

---

(١) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص ١٣٩.

(٢) عاصر الشوكاني أربعة من الأئمة وهم: المهدي عباس، حكم من (١١٦١هـ/١٧٤٨م) إلى (١١٨٩هـ/١٧٧٥م)، وابنه المنصور علي، حكم من (١١٨٩هـ/١٧٧٥م) إلى (١٢٢٣هـ/١٨٠٩م)، وابنه المتوكل أحمد، حكم من (١٢٢٤هـ/١٨٠٩م) إلى (١٢٣١هـ/١٨١٦م)، وابنه المهدي عبد الله الذي حكم من (١٢٣١هـ/ ١٨١٦م) إلى (١٢٥١هـ/١٨٣٥م). انظر: الامام الشوكاني سيرته وفكره لعادل محمد علي(١/١٥).

(٣) مئة عام من تاريخ اليمن الحديث لحسين عبد الله العمري ص٩٣.

(٤) انظر: المصدر نفسه (ص: ٨١–٨٣).

والخلاصة أن العالم الإسلامي في هذا العصر شهد صراعات مختلفة، داخلية كالصراع العثماني مع الصفويين، والصراع العثماني مع اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١] في الجزيرة العربية، والصراع العثماني المصري؛ وخارجية كالصراع الإنجليزي المصري، والصراع العثماني الفرنسي.

وجميع هذه الصراعات مهدت للغزو الصليبي العسكري والاقتصادي الذي استهدف اقتسام البلاد الإسلامية[٢].

والجدير بالذكر بعد هذا التلخيص للحياة السياسية في عصر الإمام الشوكاني، أن الإمام لم يكن بعيداً عن تلك الأحداث، لاسيما المحلية منها.

فقد تولى الإمام الشوكاني سنة ١٢٠٩هـ منصب القضاء الأكبر، واستمر فيه حتى توفي عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م[٣].

كما تولى في ذات الوقت منصب "كاتب الإمام" الذي يتولى كل المراسلات الداخلية والخارجية باسم الإمام[٤].

وقد عاصر الشوكاني حروب الإمام المتوكل على الله أحمد بن المنصور علي عام ١٢٣٧هـ، حيث تمكن من الاستيلاء على معقل الإسماعيلية، وقد قام الإمام المتوكل باطلاع الإمام الشوكاني على كتبهم فلما قرأها، أفتى بكفرهم[٥].

ولقد لعب الشوكاني في عهد الإمام (المتوكل على الله أحمد)، دور المصلح بين الأشراف وبين الإمام، ولكن ذلك الصلح انتقض فيما بعد وبقية الحروب قائمة بين الطرفين حتى عام ١٢٣٧هـ[٦].

ولطول فترة تولي الإمام الشوكاني لهذين المنصبين، فقد كان له دور علمي وسياسي ذو أثر واضح في مجريات الأحداث المعاصرة له.

---

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الدينية الاصلاحية الحديثة في جزيرة العرب. نهج منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع، عرف من والاه وشد أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد (إخوان من أطاع الله) وسماهم خصومهم بالوهابيين. توفي سنة ١٢٠٦هـ. انظر الأعلام للزركلي (٢٥٧/٦).

(٢) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص١٣٧ وما بعدها.

(٣) انظر: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث لحسين عبد الله العمري ص٦٤.

(٤) انظر: الإمام الشوكاني سيرته وفكره لعادل محمد علي (٥٣/١).

(٥) انظر: الإمام الشوكاني مفسراً لمحمد حسن الغماري ص ٣٦.

(٦) انظر: التاج المكلل للقنوجي ص٣٢٤.

ويمكن تلخيص الأحوال السياسية في عصر الشوكاني:

- الضعف الشديد للدول الإسلامية الكبرى (الدولة العثمانية).
- وجود الصراعات المذهبية كالصراع العثماني (السني)، والصفوي (الشيعي).
- كان حكم أئمة اليمن يتم تارة بالعدل، وتارة أخرى بالجور.
- وجود صراعات يمنية داخلية في ضل حكم النظام الإمامي الزيدي، صراع أسري على الإمامة، صراع بين الأئمة وبين الحركة الإسماعيلية.
- كانت دول الأئمة الزيدية[1] تهادن حركة الأمام محمد عبد الوهاب، وقد كان للشوكاني دور بازر في ذلك.

(١) هي فرقة من الشيعة وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٥٤).

المسألة الثانية: الحالة الفكرية والعلمية

لقد واكب الجمود الفكري والعلمي الاضطراب السياسي في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية، لكن الدراسة التاريخية للمذهب الزيدي تؤكد تميز اليمن عن سائر البلاد بحركة فكرية وفقهية.

فعلى الرغم من الاضطرابات السياسية، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الحروب الناشئة عن الصراعات السياسية والقبلية في اليمن، وعلى الرغم من طغيان عنصري التعصب والتقليد على البيئة العلمية اليمنية، فإن حركة التأليف والإنتاج الفكري كانت مزدهرة في هذا العصر.

والباحث عن الأسباب الموضوعية لهذه الحركة العلمية **يجد أن عاملي:**

التعصب المذهبي، وتواطؤ بعض الفقهاء مع العامة لتحقيق بعض المصالح، عملاً على تحريك الحياة الفكرية والثقافية في اليمن، إذ ظهر علماء أجلاء تصدوا لتيار الفساد والبدع، فساهمت الخصومة التي كانت بين المتعصبين وهؤلاء العلماء المجتهدين في إثراء الإنتاج العلمي[١].

وعامل آخر ساهم في إنعاش الحياة الفكرية في اليمن هو استمرار نشاط المسجد – بصفته المدرسة الأولى للقضاء والعلماء والأدباء – مجالاً حيوياً ومؤثراً في المناظرات الفقهية والاجتهادية، بل الأدبية واللغوية، وسائر شعب المعارف الإنسانية، ومن ثم فقد نبغ علماء وأدباء كبار في اليمن في حقبة تدنى فيها الفكر العربي الإسلامي[٢].

لكن الملاحظ في هذا المقام أن اليمن وإن تميز عن سائر البلاد الإسلامية بحركة فكرية فقهية، إلا أنه شاركها في توقف العلوم العقلية والرياضية والطبيعية، التي كانت تدرس في جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، إذ اعتزل العالم الإسلامي النهضة الأوروبية الحديثة، فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمي الحديث[٣].

---

(١) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي (ص: ١٤٥-١٤٦).

(٢) انظر: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث لحسين عبد الله العمري ص١٦.

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص: ١٤-١٥).

المسألة الثالثة: الحالة الدينية

لقد عاصر الشوكاني مذاهب وفرق مثل: المذهب الزيدي، المذهب الشافعي، والفرق كالمعتزلة والأشاعرة، والمتصوفة، وكان له آراء خاصة لتلك المذاهب والفرق، فكان ناقداً لجوانب الخطأ في مقولاتها ومزكياً لجوانب الحق من آرائها.

– فأما الباطنية، فقد شهد الشوكاني صرع الأئمة في عصره لهذه الطائفة، وافتى بكفرهم، حيث يقول: " أقول هم جماعة من الباطنيين، وهم في عداد الفرق الكفرية، فلا يلتفت إلى كلامهم في الشريعة المطهرة، فإنهم يجعلون تحريفها من أهم مقاصدهم"(١).

– وأما الصوفية فقد ألف رسالة خاصة بالتصوف (رسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلاق ومقالات أرباب الاتحاد) بيَّن فيها آراءه في أئمة الصوفية، وله كتاب قطر الولي على حديث الولي، وبحث في الاستدلال على ثبوت كرامة الأولياء وله بحث اسمه (التصوف)(٢).

لقد استقر في اليمن المذهب الزيدي والشافعي، ولكن المذهب الذي ساد في عصر الشوكاني هو المذهب الزيدي الذي عرف بتفتحه في العقائد على مذهب المعتزلة، وفي الفروع على مذاهب أهل السنة(٣).

وتميز المذهب الزيدي عن باقي المذاهب بخاصية جوهرية وهي فتح باب الاجتهاد، وعدم المناداة بغلقه، بل جعل الاجتهاد شرطاً لمن يؤهل نفسه لمنصب الإمامة الزيدية(٤).

ولقد شاع في عصر الإمام الشوكاني التقليد لأئمة المذهب، والتعصب لآرائهم(٥)، وأصبح المذهب الزيدي يفرض على الطلبة رغبة ورهبة، ويفرض كحكم، فلم يستطع أي قاض أن يحكم بغيره(٦).

---

(١) وبل الغمام على شفاء الأوام للشوكاني ص١٤ مخطوط (٦٩). نقلاً عن عبد الغني الشرجي: الإمام الشوكاني حياته وفكره ص ٦٩.

(٢) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي (ص: ٩٩-١٠١).

(٣) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة (٤٩٥/٢).

(٤) انظر: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث لحسين عبد الله العمري ص١٧، تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة (٤٩٦/٢-٥٠٠).

(٥) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٨٤/٢).

(٦) انظر: من أعلام اليمن لقاسم غالب وآخرون ص١٠٩ ، نقلاً عن عادل محمد علي: الإمام الشوكاني سيرته وفكره (٦٨/١).

ومن هنا يتبين أن البيئة الدينية التي عاش فيها الشوكاني كانت بيئة المتناقضات: أصول تبيح الاجتهاد وتقره، وواقع يفرض التقليد والتعصب المذهبي، أصول تقوم على العلم، وواقع يبنى على الأهواء، إذ كثيراً ما انساق العوام لتحريض بعض العلماء من خصوم أهل الاجتهاد، فيقومون بثورات جماعية ضدهم، مثلما حدث مع محمد بن إسماعيل الصنعاني(١) (٢) والشوكاني(٣).

المسألة الرابعة: الحالة الاجتماعية

شهدت اليمن في هذا العصر تدهوراً رهيباً للحياة الاجتماعية، فقد كان للثورات الداخلية القبلية كما بيَّن الإمام الشوكاني دور كبير في نشر الخوف والرعب في أوساط المجتمع اليمني عن طريق الغزوات المتلاحقة التي كانت تهدف إلى الحصول على المقررات المالية ونهب المواطنين(٤).

كما عرف المجتمع اليمني في هذا العصر ظلماً اجتماعياً سببه تعفّن الجهاز الإداري، وإسناد منصب القضاء لغير أهله(٥).

لقد أدى اضطراب الحالة السياسية والدينية، إلى تدهور الحالة الاجتماعية، فكان هناك أنماط متعددة من الصرع بين القوى الإسلامية بين الأتراك واليمنيين وبين الأتراك والمصريين وبين الأتراك والوهابيين وبين الوهابيين وأشراف المخلاف السليماني، وبين أشراف المخلاف السليماني وحكام صنعاء(٦) .

وكان الظلم الاجتماعي سمه غالبة في المجتمع اليمني، وقد كانت القبائل ذات الشوكة والنفوذ تتصف بالطمع في الدنيا، والجهل بالدين(٧).

---

(١) محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد، أبو إبراهيم، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير. مجتهد، برع في جميع العلوم. من تصانيفه: (توضيح الأفكار)، و(شرح تنقيح الأنظار)، و(سبل السلام). توفي سنة ١١٨٢ هـ . انظر: البدر الطالع للشوكاني (١٣٣/٢)، الأعلام للزركلي (٣٨/٦).

(٢) انظر: البدر الطالع للشوكاني (١٣٤/٢).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٢٣٣/١).

(٤) انظر: المصدر السابق (١٧٨/٢).

(٥) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص١٤٣.

(٦) انظر: المصدر نفسه ص١٠٥.

(٧) المصدر السابق ص١٠٧.

المسألة الخامسة: الحالة الاقتصادية والإدارية

لقد كان لتدهور الأحوال السياسية بشكل عام أثره البالغ على الوضع الاقتصادي للدولة، التي اقتصرت إيراداتها على الضرائب، إلى جانب الزراعة التي يقوم بها أفراد الشعب والتجارة [١].

كما أدت الفتن التي نزلت بالبلاد إلى ضيق المعاش وتقطع كثير من أسباب الرزق وعسر المكاسب حتى ضعفت تجارة الناس ومكاسبهم، وأفضى ذلك إلى ذهاب كثير من الأملاك[٢].

كما خنقت منافذ التجارة اليمنية الخارجية بسبب سعي الدول الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، إلى السيطرة على كل موانئ البحر الأحمر في اليمن، وفقد بذلك اليمن مصدر دخل هام، إذ سيطر الأمريكان والأوروبيون منذ القرن التاسع عشر الميلادي – الثاني عشر الهجري– على تجارة البن اليمني العالمي[٣].

ومما زاد الوضع الاقتصادي تأزماً لجوء بعض الأئمة لمواجهة الأزمات الاقتصادية التي تفاقمت بسبب فساد الإدارة، وضغط الاضطرابات الداخلية والأحداث الخارجية إلى زيادة الضرائب، واحداث ضرائب جديدة، والتغيير المستمر للعملة، والتلاعب بقيمتها. وقد وصف الاقتصاد اليمني في عصر الشوكاني بأنه اقتصاد زراعي ومعظم الإنتاج كان استهلك محليا، ولم تكن هناك مواصلات عصرية أو مؤسسات مالية أو نظام نقدي مناسب، وتميز النظام الضرائبي بالظلم مما سبب في هجرة المواطنين إلى الخارج، وفي نقص المساحات المزروعة، وقلة المواد الغذائية، وكانت هناك فروع لبيت المال في جميع المناطق، ومستودعات للحبوب والبن لا يصرف منها شيء إلا بأمر الإمام[٤]، وكانت الحرف الاقتصادية الراقية بيد اليهود مثل صناعة السيوف، فن العمارة، صناعة الذهب والفضة[٥].

وقد حاول الشوكاني إصلاح الأوضاع الاقتصادية في اليمن من خلال رسائله الإصلاحية كرسالة (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) والتي دعا فيها إلى العدل، وإلى إسناد المناصب للمؤهلين علما وفكرا وخلقا، وكشف فيها أن ما يصيب المجتمع من فتن مختلفة سببها البعد عن حقيقة الإسلام وهجر ما يدعو إليه من عدل وتنمية في جميع المجالات.

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ص٥١١.

(٢) انظر: الفتح الرباني للشوكاني (٥٧٣٨/١١).

(٣) انظر: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث لحسين عبد الله العمري ص٢٦٨.

(٤) انظر: الحكم العثماني في اليمن لفاروق عثمان أباظة ص٦٢.

(٥) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص١٤٤.

كما أنه قد حاول رسم سياسة اقتصادية واجتماعية عادلة للنظام الإمامي تحقق العدل وترفع الظلم عن المجتمع، وقد استجاب له النظام الحاكم، وصدرت القرارات المتصلة بتلك السياسة، وكان من نتائجها إغلاق مكاتب المكوس في باب اليمن في العاصمة صنعاء وتلقت كل مناطق اليمن أمراً إمامياً صاغه الشوكاني يقضي بعدم دفع أي مواطن يمني ما كان يجبى منه من مكوس جائرة، ولكن وزراء وعلماء وقضاة وحكام السوء حاربوا تلك السياسة واقنعوا الإمام بالعدول عنها[١].

ولقد انتقد الشوكاني هذه السياسة الاقتصادية في بعض قصائده الشعرية[٢]، وفي كتابه (الدواء العاجل في دفع العدو الصائل) الذي درس فيه أسباب تدهور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، كما حاول رسم سياسة اقتصادية محكمة يتحقق بها العدل الاجتماعي.

وقد بيَّن الشوكاني ضعف السلطة المركزية، وضياع بعض الأطراف من سادة النظام الحاكم، فدعا في كتابه (الدواء العاجل الدفع العدو الصائل) إلى الإدارة المركزية بحيث تصل سلطة الدولة إلى كل قريه ومن خلال ذلك تقدم خدماتها التربوية والدينية وتمارس سياسه العدل في توظيف الحكام والقضاة والعمال والكتاب، فتقوم على سبيل المثال بتعيين معلم في كل قرية، وبإلزام كل أب في تعليم ابنه، وفرض العقوبة على من تخلف منهم، وتقوم بمحو الأميه الدينية التي كانت منتشرة في الريف والمدينة، وبإلزام كل مواطن على تعلم أداء الفرائض الشرعة كالصلاة وغيرها، فإن أبا ذلك عوقب بالسجن[٣].

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني (ص:١٦٢-١٦٣).

(٢) انظر: أسلاك الجوهر للشوكاني (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

(٣) انظر: الفتح الرباني للشوكاني (٥٧٢٧/١١) وما بعدها.

ب: التعريف بالإمام الشـوكـانـــي

إن واحداً كالإمام الشوكاني، صاحب التصانيف المختلفة، والآثار النافعة ليتحدث عن نفسه بهذه الآثار، فهو بحق إمام الأئمة، ومفتي الأئمة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوحد العباد، قامع المبتدعين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماع، عليٌّ الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها. وسوف نعرف به بشكل موجز في المسائل التالية:

المسألة الأولى: حياته الشخصية.

المسألة الثانية: حياته العلمية.

المسألة الثالثة: مكانته.

المسألة الرابعة: وفاته.

المسألة الأولى: حياته الشخصية[١]

الفرع الأول: اسمه وكنيته ولقبه

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد العفيف بن محمد بن مرزوق الشوكاني[٢] ثم الصنعاني[٣]. أما كنيته: فهيا أبو أحمد. أما ألقابه: فالشوكاني، الصنعاني، قاضي القضاة.

الفرع الثاني: نسبه

ذكر الشوكاني اسمه في ترجمته لنفسه، فقال: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ثم الصنعاني، ثم انتهى بالسلسلة في ترجمة والده إلى (زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان، بن هود، بن عامر، بن سالخ، بن أرفخشد، بن سام، بن نوح، بن لمك، بن متوشلح، ابن اخنوح، بن لود، بن مهلائيل، بن قيتان، بن أنوش، بن شيث، ابن آدم وحوى سلام الله عليهما)[٤].

الفرع الثالث: مولده وأسرته

كان مولد الشوكاني يوم الإثنين الثامن والعشرين من ذي قعدة الحرام سنة اثنتين وسبعين بعد مائة وألف في بلده هجرة شوكان[٥]. قال الإمام الشوكاني عند الكلام على ترجمة والده[٦] : "ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية؛ لأن وطنه ووطن سلفه وقرابته هو مكان عدني – أي

---

(١) مصادر ترجمته: البدر الطالع للشوكاني(٢/ ٢١٤٢-٢١٥)؛ التاج المكلل (ص: ٤٣٦-٤٥١)، وأبجد العلوم (٢٠١/٣-٢١١) كلالهما لصديق حسن خان ؛ نفحات العنبر للحوثي (ص: ٤٣٥-٤٥١)، درر نحور العين لجحاف (ص: ٤٢١-٤٣٤)؛ هدية العارفين للبغدادي (٤٠٣/٢) ؛ نيل الوطر لزباره (٢٩٧/٢-٣٠٢)؛ الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي (١٤٤/٣-١٤٥)؛ فهرس الفهارس للكتاني (١٠٨٢/٢)؛ الأعلام للزركلي (٦/ ٢٩٨)؛ معجم المؤلفين لكحالة (٥٣/١١)؛ المجددون في الإسلام للصعيدي(ص: ٤٧٢-٤٧٥)؛ وغيرها (مأخوذ من التحقيق لسامي الأثري لكتاب (إرشاد الفحول) ص١٣.

(٢) نسبة إلى هجرة شوكان ، وهي قرية من قرى السحامية؛ إحدى قبائل خولان بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم. انظر: البدر الطالع للشوكاني ٤٨٠/١.

(٣) الصنعاني: نسبة إلى مدينة صنعاء التي استوطنها والده ونشأ فيها بعد ولادته في الهجرة.

(٤) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٤٧٨/١-٤٧٩).

(٥) انظر: أبجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي (٢٠٢/٣).

(٦) علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن الشوكاني: استمر في الْقَضَاء أَرْبَعِين سنة، ترك ولدين أكبرهما مُحَمَّد وَهُوَ جامع هذا الْكتاب ويحيى. توفي سنة١٢١١هـ. انظر: البدار الطالع للشوكاني (٤٧٨/١).

جنوبي – " شوكان" بينه وبينها جبل كبير مستطيل يقال له: " هجرة شوكان " فمن هذه الحيثيه كان انتساب أهله إلى" شوكان" "[١].

وقد خلف محمد بن علي الشوكاني **ولدين** هما: أحمد[٢] وعلي[٣]، وقد كانا من أبرز علماء صنعاء، إذا هما ذا علم ومكانة.

الفرع الرابع: نشأته

نشأ الإمام الشوكاني بصنعاء اليمن، وتربى في بيت علم وفضل، فهو من أسرة عرفت بالصلاح والتقوى والنجابة، وكان لها في اليمن منزلة كبيرة، فمنها علماء وأدباء، ولكثير من أبنائها أيادي طولى في الدعوة والإصلاح والتدريس والإفتاء، وعلى رأسهم والده العلامة الزاهد علي بن محمد الشوكاني الذي تولى قضاء صنعاء وكان كبير رجال الإفتاء والتدريس.

وقد تلقى الإمام الشوكاني معارفه الأولى على يد والده، فقد كانت حياة والده معالم قدوة وأسوة له، سواء في الإقبال على مختلف العلوم أو في إقباله على التدريس ثم الإفتاء، وفي مزاولته القضاء، فهو عامل أساسي في تنشئته وتطبيعه الاجتماعي وفي تعلمه، وقد بدأ رحلة تعلمه لدى والده، ثم لدى مشايخ صنعاء[٤].

حفظ القرآن وجوده، كما حفظ عدداً كبيراً من المتون وبعض مختصرات علوم اللغة والفقه قبل أن يبدأ عهد الطلب، ولم يتعد سنه العاشرة من عمره، ثم اتصل بالمشايخ، وكان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ والأدب[٥] .

ثم شرع بعد ذلك في طلب العلم، فدرس على والده وعلى البارزين من العلماء في عصره مختلف العلوم الدينية واللسانية والعقلية، والرياضية، والفلكية، وظل كما يقول: يأخذ عن شيوخه حتى استوفى كل ما عندهم من كتب، بل زاد في قراءاته الخاصة على ما ليس عندهم، وكان طلبه للعلم في

---

(١) البدر الطالع للشوكاني (١/ ٤٨١).

(٢) أحمد بن محمد بن علي الشوكاني: قاض، من فضلاء اليمانيين نصب للقضاء في صنعاء زمنا، وأصابته محن، كان علماء اليمن يسمونه (قاضي أرحم الراحمين). توفي سنة ١٢٨١هـ. انظر: الأعلام للزركلي(٢٤٦/١).

(٣) علي بن م حمد بن علي الشوكاني: كان نافذ الفهم جيد التصور قوي الإدراك، شاغلاً جميع أوقاته يجمع علوم الاجتهاد حتى صار معدوداً من علماء صنعاء. توفي سنة ١٢٥٠هـ. انظر: نيل الوطر لزبارة (١٦٢/١).

(٤) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص ١٥٥.

(٥) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٢١٥/٢).

صنعاء نفسها، لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم لعدم إذن أبويه له في الرحلة، فكان عند إذنهما[١].

الفرع الخامس: صفاته وأخلاقه

لم تذكر كتب التاريخ والتراجم عن صفاته " الخَلقية " سوى أنه كان متوسط الطول، كبير الرأس، عريض الجبهة، بادي الصحة، موفور العافية.

أما صفاته " الخُلُقية " فكثيرة ومشهورة ، حتى ألف في مناقبه وفضائله الكثيرون من تلاميذه، منهم:

١- السيد العلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي[٢] في كتابه (نفحات العنبر).

٢- الحسن بن أحمد عاكش[٣] في كتابه (حدائق الزهر).

٣- القاضي العلامة محمد بن حسن الشجني الذماري[٤]، ألف في ذلك كتاباً حافلاً سماه: (التقصار في جيد زمن علامة الأقليم والأمصار) [٥].

والواضح في حياة الشوكاني أنه بدأ حياته منقبضاً عن الناس، لايتصل بأحد منهم، إلا في طلب العلم ونشره، ولا سيما هؤلاء الذين يحكمون أو يتصلون بالحاكمين، كما ذكر ذالك عن نفسه أنه كان منجمعاً عن الناس لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة، لا يتَّصل بأحدٍ منهم كائنًا من كان، ولم يكن له رغبة في غير العلوم[٦].

وبالجمله: فمحل القول في هذا الأمام ذو سعة، فإن وجدت لساناً قائلاً فقل:

زد في العلا مهما تشا رفعة *** وليصنع الحاسد ما يصنع

فالدهر نحوي كما ينبغي *** يدري الذي يخفض أو يرفع [٧]

---

(١) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٢١٥-٢١٨). سيرته العلمية وعلى من طلب العلم والكتب المقرؤة.

(٢) إبراهيم بن عبد الله بن إسماعيل الحوثيٌّ ثمَّ الصَّنعاني، قال عنه الشوكاني: وبالْجُمْلَة فَهُو من محاسن الزَّمن ومن الضاربين بسهم وافر في كل فن. توفي سنة ١٢٢٣هـ. انظر: البدر الطالع للشوكاني (١/١٩).

(٣) الحسن بن أحمد بن عبد الله، المعروف بعاكش: مؤرخ يماني، من كتبه: الديباج الخسرواني في ذكر أعيان المخلاف السليماني. توفي سنة ١٢٨٩هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٢/١٨٣).

(٤) محمد بن الحسن بن علي الشجني: فاضل، من العلماء بالتراجم، من أهل (ذمار) باليمن، له مؤلفاته منها (التقصار). توفي سنة ١٢٨٦هـ.انظر:المصدر نفسه (٦/٩٣).

(٥) انظر: نيل الوطر لزبارة (٢/٢٩٨).

(٦) انظر: البدر الطالع للشوكاني (١/٤٦٤).

(٧) انظر: التاج المكلل لقنوجي ص٤٥١.

المسألة الثاني: حياته العلمية

الفرع الأول: طلبه للعلم

نشأ الإمام الشوكاني بصنعاء اليمن، وتربى في بيت العلم والفضل فنشأ نشأة دينيه طاهرة، تلقى فيها معارفه الأولى على والده وأهل العلم والفضل في بلدته، فحفظ القرآن الكريم وجوده، ثم حفظ كتاب " الأزهار " للإمام "المهدي " في فقه الزيديه، ومختصر الفرائض للعصيفيري، والملحه للحريري، والكافيه والشافيه لابن الحاجب، وغير ذلك من المتون التي اعتاد حفظها طلاب العلم في القرون المتأخرة، وكان كثير الإشتغال بمطالعة كتب التاريخ، والأدب، وهو لايزال مشتغلاً بحفظ القرآن الكريم(١).

ومما ساعد الإمام الشوكاني على طلب العلم والنبوغ المبكر: وجوده وتربيته في بيت العلم والفضل، فإن والده كان من العلماء المبرزين في ذلك العصر، وقد هيأ له كل أسباب طلب العلم يقول الإمام الشوكاني: " ولقد بلغ معي إلى حد من البر والشفقة والإعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغاً عظيما بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب فجزاه الله خيراً وكافاه بالحسنى.. وقرأت عليه رحمه الله في ايام الصغر في شرح الأزهار وشرح الناظري مع غيري من الطّلبة"(٢).

ومما ساعد الإمام الشوكاني على طلب العلم أيضاً أن أكثر أهل هذه القريه– يقصد شوكان– كانوا كذلك من أهل العلم والفضل(٣).

وقد أورد الإمام الشوكاني في كتابه (البدر الطالع) أسماء الكتب التي طلب العلم فيها على يد مشايخه، وأطلق عليها اسم المقروءات والمسموعات، هذا بالإضافة إلى ما جاز له روايته بالإجازة(٤)، بالإجازة(٤)، وبالجملة فقد درس دراسة واسعة، واطلع اطلاعاً يندر أن يحيط به غيره، فليس من المستطاع سرد ما درسه من كتب.

تصدر الإمام الشوكاني للإفتاء وهو في سن العشرين، حيث يقول الإمام الشوكاني عن نفسه في ترجمته: " وكان في أيَّام قراءته على الشُيوخ وإقرائه لتلامذته يُفتى أهل مدينة صنعاء بل ومن وفد

---

(١) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٢/٢١٥).

(٢) المصدر نفسه (١/٤٨٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/٤٨١).

(٤) انظر: البدر الطالع للشوكاني(٢ / ٢١٥ – ٢١٨).

إِلَيْهَا بل ترد عَلَيْهِ الْفَتَاوَى من الديار التهامية وشيوخه إذ ذَاك أَحيَاء وكادت الْفتيا تَدور عَلَيْهِ من أَعوام النَّاس وخواصتهم واستمر يفْتى من نَحْو الْعشْرين من عمره فَمَا بعد ذَلِك "[١].

بدأ الإمام الشوكاني حياته العلمية والفقهية على مذهب الزيدية، لأن مذهب الزيدية كان هو المذهب الشائع في اليمن في زمانه، ثم تركه ورجع إلى مذهب السلف بعد أن استقام عوده وصلب في العلم، وصنف كتابه "التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف"، ثم صار رأساً في الدعوة إلى مذهب السلف في اليمن، والدعوة إلى الاجتهاد الفقهي المنضبط بالضوابط العلمية الصحيحة، وقد ظهر أثر ذلك في كتبه التي صنفها.

وقد تأثر الإمام الشوكاني بشخصيَّات كثيرة من الذين كانوا قبله منهم من بلده اليمن، وأشهرهم: العلامة محمد بن إبراهيم الوزير[٢]، والعلامة محمد بن إسماعيل الأمير، ومنهم من غير بلده ولم يكونوا في عصره ، وعلى رأسهم: إمام الدنيا ابن حزم الأندلسي، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٣].[٤]

الفرع الثاني: شيوخ الإمام الشوكاني[٥]:

تلقى الإمام الشوكاني عن كثيرين من الشيوخ، وحباه الله بعدد وفير من أفذاذ العلماء من ذوي الفضل من أهل عصره، فقد كان الشوكاني يبحث عن العلم والمعرفة في المظان المختلفة، ويتنقل بين المشايخ بحثاً عن المعرفة، الأمر الذي يجعل البحث عن كل شيوخه عسيراً، وسوف نكتفي هنا بذكر بعض مشايخه المشهورين، فمنهم:

١- والده: علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني (ت ١٢١١هـ).

٢- أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي[١]. قال الشوكاني في ترجمته: " وقد لازمته في الفروع نحو ثلاث عشر سنة، وانتفعت به، وتخرَّجت عليه"[٢].

---

(١) المصدر نفسه ٢١٩/٢.

(٢) محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله المعروف بابن الوزير: مجتهد باحث، من أعيان اليمن له كتب نفائس، منها: (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم). توفي سنة ٨٤٠هـ. انظر: الضوء الامع للسخاوي (٢٧٢/٦).

(٣) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام. أفتى ودرس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر منها: (الفتاوى)، و(الجمع بين النقل والعقل)، و(منهاج السنة). وغيرها، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ، فخرجت دمشق كلها في جنازته. انظر: فوات الوفيات لصلاح الدين (٧٤/١)، الدرر الكامنة لابن حجر (١٦٨/١١).

(٤) انظر: أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني (ص: ٤٥-٤٦)، البدر الطالع للشوكاني (٦٤/١).

(٥) انظر: البدر الطالع للشوكاني(٢ / ٢١٥ -٢١٨).

٣- عبدالقادر بن أحمد شرف الدين الكوكباني[٣]. قرأ عليه الشوكاني العديد من العلوم.

٤-عبدالله بن إسماعيل النهمي[٤]، قرأ عليه الشوكاني النحو، والصرف، والمنطق، والحديث، والأصول، وغير ذلك.

٥-علي بن إبراهيم بن علي بن عامر الشهيد[٥]. سمع عليه " صحيح البخاري " من أوَّله إلى آخره. قال عنه الشوكاني: " كان إماماً في جميع العلوم محققاً لكل فن ذا سكينة ووقار قل أن يوجد له نظير "[٦].

الفرع الثالث: تلاميذ الإمام الشوكاني[٧]

إن من منن الله تعالى على هذه الأمة أن حفظ لها مآثر أخيارها وعلماءها، وذلك بوسيلتين هما: التلاميذ والمصنفات.

ومن أشهر التلاميذ الذين أخذوا عن الإمام الشوكاني:

- ابنه أحمد بن محمد بن علي الشوكاني.

---

(١) أحمد بن محمَّد بن أحمد بن مطهر القابلي نسبة إلى جماعة معروفة يسكنون بالقرب من حصن شبّام حراز المعروف بالحرازي، برز في الفقه والفرائض. توفي سنة ١٢٢٧هـ. انظر: المصدر نفسه (٩٦/١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٩٧).

(٣) عبد القادر بن احمد بن عبد القادر بن التاصر بن عبد الرب، المحدث الحافظ المسند المجتهد المطلق. توفي سنة ١٢٠٧هـ. انظر: البدر الطالع للشوكاني (١ /٣٦٠).

(٤) عبد الله بن إسماعيل بن حسن بن هادي النهمي، برع فى النحو والصرف وشارك مشاركة قويَّة في المنطق والمعاني والبيان والأُصول. توفي سنة ١٢٢٨هـ. انظر: المصدر نفسه (٣٧٩/١).

(٥) علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن احمد بن عامر الشَّهيد، لم يشتغل بالتأليف، توفي سنة ١٢٠٧هـ. انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٦).

(٦) البدر الطالع للشوكاني ١/ ٤١٦.

(٧) ذكر الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال في مقدمة " قطر الولي " (ص: ٤٢-٤٥) ثلاثة عشر تلميذاً للإمام الشوكاني. وذكر الدكتور محمد حسن الغما ري (صاحب كتاب: الشوكاني مفسراً) (ص: ٧٤- ٨١) ثلاثة وثلاثين تلميذاً. وذكر الدكتور عبدالغني الشرجي (صاحب كتاب: الشوكاني حياته وفكره) (ص: ٢٣٨ – ٢٦٦) تلاميذ الشوكاني وأوصلهم إلى اثنين وتسعين تلميذاً. كما أورد عقب ترجمة كل تلميذ . العلوم التي استفادها من الشوكاني.

- ومحمد بن أحمد السودي[١] ،لازم الإمام الشوكاني من بداية طلبه للعلم.
- ومحمد بن أحمد مشحم الصعدي الصنعاني[٢].

الفرع الرابع: مؤلفاته

بقدر ما كان الإمام الشوكاني موسوعياً في قراءاته، فقد كان كذلك في ما خلف للمسلمين من مؤلفات، فعلى الرغم من اشتغاله بالقضاء ومزاولته للإفتاء، فإن إنتاجه في ميدان التأليف لم يتوقف، فلم يترك النسخ يوماً واحداً إلى أن توفاه الله[٣]، فقد بلغت مؤلفاته بين المطبوع والمخطوط (٢٧٨) مؤلفاً منها (٢٤٠مخطوطاً، ٣٨ مطبوع)[٤]، ولا يزال معظمها مخطوطاً رهين الأدراج والأرفف، ولم يكتب له أن يرى نور النشر والطباعة حتى اليوم، ولو قمت بسرد هذه المؤلفات لطال الكلام، وقد التزمت الاختصار في هذا المقام، ولذلك سأقتصر على أهمِّ كتبه المطبوعة، والتي تظهر للقارىء تضلع هذا الإمام وإلمامه بمختلف أنواع العلوم الشرعية:

١ ـ " القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد".

٢ ـ " أدب الطلب ومنتهى الأرب".

٣ ـ " فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من التفسير".

٤ ـ " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار".

٥ ـ " السَّيل الجرَّار المتدفق على حدائق الأزهار".

٦ ـ " الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة".

٧ ـ " إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول " وهو من فرائد ما أُلف في علوم أصول الفقه.

٨ ـ " البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع".

٩ ـ " تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين".

١٠ ـ " قطر الولي على حديث الولي".

---

(١) محمَّد بن أَحْمد بن سعد السودي ثمَّ الصنعاني، برع في جَميع الْفُنُون، ودرس الطّلبَة، وهُوَ من أَعْيَان عُلَمَاء صنعاء، صار قَاضيا من قُضَاة مدينة صنعاء توفي سنة ١٢٣٦هـ. انظر: البدر الطالع للشوكاني (١٠٣/٢).

(٢) محمَّد بن أَحمَد بن محمَّد بنَ أَحمد بن جار الله مشحم الصعدي الأَصل الصنعانيَ ، له ذهن قويم وفهم جيد وذكاء متوقد، وحسن تصور باهر وقُوَّة إدراك مفرط، توفي سنة ١٢٢٣هـ. انظر: المصدر نفسه (١١٦/٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٢٠/١).

(٤) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره لعبد الغني الشرجي ص٢٢٩. ومن اراد الرجوع لأسماءها فلينظر نفس المصدر (ص: ١٩٤-٢٢٩).

١١ ـ " الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني".

١٢ ـ " إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر".

١٣ ـ " التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف".

١٤ ـ " الدواء العاجل في دفع العدو الصائل".

وغيرها كثير كثير، مما نسأل الله أن يعين رواد العلم وطلاب المعرفة على نشر كنوزه وإظهار فرائده إلى عالم المنشورات.

الفرع الخامس: مذهبه الفقهي

تفقه الشوكاني في أول حياته على مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين[١]، وبرع فيه، وفاق أهل زمانه، حتى خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الإجتهاد، فألف كتابه: (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) فلم يقيد نفسه بمذهب الزيدية، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، وزيف مالم يقم عليه الدليل، فثار عليه أهل مذهبه، من الزيدية، المتعصبون لمذهبهم في الأصول والفروع، فكان يقارعهم بالدليل من الكتاب والسنة، وكلما زادوا ثورة عليه زاد تمسكه بمسلكه، حتى ألف رسالة سماها: " القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد" ذهب فيه إلى ذم التقليد وتحريمه، فزاد هذا في تعصبهم عليه، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت، فقامت بسبب هذا فتنة في " صنعاء " بين خصومه وأنصاره، فرد عليهم بأنه يقف موقفاً واحداً من جميع المذاهب، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه[٢] .

وهكذا اختار الإمام الشوكاني لنفسه مذهباً لا يتقيد فيه برأي معين من آراء العلماء السابقين، بل على حسب ما يؤديه إليه اجتهاده، وهذا ما يلحظه القارىء لكتابه (نيل الأوطار) حيث ينقل آراء ومذاهب علماء الأمصار، وآراء الصحابة والتابعين، وحجة كل واحد منهم، ثم يختم ذلك ببيان رأيه الخاص، مختاراً ما هو راجح فيما يقول.

ويرى أن الاجتهاد قد يسره الله تعالى للمتأخرين، وأنه أصبح ميسوراً أكثر مما كان في الصدر الأول فيقول: "فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم، أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين، تيسيراً لم يكن للسابقين؛ لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت من الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، وكذلك السنة المطهرة، وتكلم الأئمة في التفسير، والتجريح والتصحيح، والترجيح، بما هو زيادة على ما

---

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: الامام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي. ويقال له (زيد الشهيد) واليه تنسب الطوائف الزيدية. توفي مقتولاً سنة ١٢٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٨٩/٥).

(٢) انظر: التاج المكلل للقنوجي ص ٤٤٥.

يحتاج إليه المجتهد، وقد كان السلف الصالح، ومن قبل هؤلاء المنكرين يرحل للحديث الواحد، ومن قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح، وعقل سوي(١).

الفرع السادس: عقيدة الإمام الشـوكـانــي

سجل الشوكاني آراءه ومذهبه في ثنايا كتبه المختلفه ولاسيما كتابيه:

١- التحف في مذاهب السلف.

٢- كشف الشبهات عن المشتبهات.

هذا، وقد اعتنق الشوكاني هذا المذهب بعد طول بحثه ومطالعة في كتب علم الكلام حتى صرح بأنه لم يعتنق مذهب السلف تقليداً، وإنما عن إجتهاد واقتناع.

ولذلك يقول: " وها أنا أخبرك عن نفسي وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي فإني في أيام الطلب وعنوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إليَّ مذهب السلف، على أني كنت قبل ذلك عليه ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفا، وقلت عند ذلك في تلك المذاهب:

وغاية ما حصلته من مباحثي *** ومن نظري من بعد طول التدبر

هو الوقف ما بين الطريقين حيرة *** فما علم من لم يلق غير التحير

على أنني قد خضت منه غماره *** وما قنعت نفسي بدون التبحر"(٢).

---

(١) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (٢/٢١٤).

(٢) التحف في مذاهب السلف للشوكاني (ص: ٤٧-٤٨).

وقد بحثت عقيدة الإمام الشوكاني في رسالة علمية بعنوان: " منهج الإمام الشوكاني في العقيدة " تأليف الدكتور عبد الله نومسوك، وسأنقل لك ما لخصه الدكتور في الخاتمة فقال: فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من إتمام هذا البحث واكماله، وفي هذه الخاتمة أحب أن أجمل النتائج والفوائد التي توصلت إليها في النقاط التالية:

١ - عاش الشوكاني رحمه الله (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ) في فترة كانت البلاد الإسلامية فيها تعاني من تفكك ومن ضعف شديد ، وكانت الصراعات المذهبية والطائفية القبلية تسود المجتمعات الإسلامية بصفة عامة ومجتمع اليمن (مسقط رأسه) بصفة خاصة، وقد عاصر رحمه الله المذاهب والفرق والطوائف الدينية المختلفة، كالرافضة، والزيدية، والصوفية، والمعتزلة، وغيرهم، ورأى ما فيهم من التعصب والجمود، ومن الأنحراف العقدي والسلوكي المتناقض لتعاليم الأسلام، كما رأى ما وقع فيه الناس حوله من الفساد، والشرور، والبدع، والشركيات، وجهالهم بأمور الدين، ورأى قعود العلماء والحكام عن أداء واجباتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأى الظلم الأجتماعي الذي

ساد المجتمع اليمني عموماً، تبدّت مظاهره في سلوكيات القضاة والعمال والحكام وهذه الأمور التي تكونت منها بيئه الشوكاني لها أثر بالغ في ظهوره وقيامه بالأصلاح.

٢ – نشأ الشوكاني رحمه الله في بيت علم حيث كان والده من العلماء الكبار، وكان له أكبر الأثر في تكوين الشوكاني، حيث هيأ له فرصة التفرغ للعلم، وكفل له وسائل الحياة المعيشية، فبدأ حياته العلمية منذ الصغر، وتتلمذ على عدد كبير من علماء صنعاء في عصره، ولم يرحل منها. وكان أكثرهم تأثيراً فيه شيخه عبد القادر بن أحمد الكوكبانى، والحسن بن إسماعيل المغربي، وعبد الله بن إسماعيل النهمي، ودرس جميع العلوم الشرعية والعربية ونبغ فيها، بل درس العلوم الفلسفية الشائعة في ذلك الوقت، كالمنطق، والطبيعة، والرياضة، وغير ذلك، وقد بلغ مرتبة من التفوق المبكر جع لته يدرس وهو في أثناء طلبه العلم، ويفتى وهو في العشرين من عمره، ثم يتولّى بعد ذلك القضاء العام وهو في السادسة والثلاثين من عمره، ووجد في قضائه فرصة متاحه له لنشر مذهبه في الأجتهاد ونبذ التقليد، والدعوة إلى طريق السلف الصالح، وظل متولياً منصب القضاء حتى توفى بصنعاء عام ١٢٥٠هـ.

٣ – خلّف الشوكاني رحمه الله تعالى مع اشتغاله بالأعمال الكثيرة عدداً كبيراَ من المؤلفات والرسائل القيمة في مختلف العلوم، ولم يزل معظم هذا التراث مخطوطاً وتجدر العناية بتحقيقه، ودراسته، وتسهيل السبل إلى طبعه، حتى تتحقّق الفائدة.

٤ – تفقّه الشوكاني رحمه الله على مذهب الزيدية، إلا أنه لم يلبث أن تخلى عن التقليد والتمذهب، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتمادا مباشرا على الكتاب والسنة، وأصبح من المجتهدين في البحث عن الحكم الشرعي والرأي العقائدي من خلال الأدلة والبراهين، لا من طريق التقليد والتلقين، وقد وصل إلى هذه المرتبة وهو دون الثلاثين من عمره، وكانت دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد والرجوع بالتشريع إلى طريق السلف تمثل إمتدادا لأدوار من سبقه من المجددين والمصلحين، كالإمام مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وكابن الوزير، والمقبلي، والأمير الصنعاني، والإمام محمد بن عبد الوهاب، ونظائرهم، رحمهم الله. وقد تعرض في سبيل الدعوة لأذى كثير من المتعصبين والمقلدين في عصره، واتهموه بالدعوة إلى هدم مذهب أهل البيت، وهو بريء من هذه التهمة، وهذا شأنهم مع كل عالم مجتهم آخذ بالدليل.

٥ – أورد الشوكاني رحمه الله أحاديث ضعيفة ومنكرة في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض كتبه، وألف في آخر عمره كتابه: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، حيث بين نكارة كثير من تلك الأحاديث. وهذا يدل على أنه لم يتبين له ما في تلك الأحاديث من النكارة، ولما نضج علمه توصل إلى هذه النتيجة في الحكم عليها، وهو أمر يدل على تطور في علمه بعلوم الحديث، شأنه كشأن غيره من العلماء المجتهدين.

٦ – من خلال دراستي لمنهج الشوكاني في العقيدة تبين لي أنه وافق السلف أهل السنة في جميع أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، ولم يخالفهم إلا في مسائل قليلة، وكان رأيه في بعضها مضطربا بين كتاب وآخر، كما في بعض الصفات. وفيما يلي أذكر تلك المسائل مختصرا.

(أ) في توحيد الألوهية: أجاز التوسل بالذات والجاه وجعله كالتوسل بالعمل الصالح، وهذا مخالف لما قرره ودعا إليه في عدد من كتبه من محاربة الشرك وسد الذرائع المؤدية إليه.

المسألة الثالثة: مكانته

كان الإمام الشوكاني غرة في جبين الدهر، انتهج من مناهج العلم ما عمي على كثير ممن قبله، وأوتي فيه من طلاقة القلم والزعامة مالم ينطق به قلم غيره، فهو من مفاخر اليمن بل العرب[١].

قال عنه لطف بن أحمد جحاف[٢]: "شيخنا المحقق في المعقول والمنقول الجهبذ المجتهد" [٣].

(ب) في أسماء الله تعالى: ذهب إلى جواز تسمية الله بما ثبت من صفاته، سواء ورد التوقيف بها أو لم يرد. غير أني لم أقف على تطبيق الشوكاني هذه القاعدة لا في تفسيره، ولا في غيره.

(ج) في صفات الله تعالى:١ – أول بعض الصفات الإلهية في تفسيره: فتح القدير تأويلا أشعريا. والصفات التي أولها هي: الوجه، والعين، واليد، والعلو، والمجيء، والإتيان، والمحبة، والغضب، على التفصيل الذي ذكرته في الرسالة. وهذا التأويل مناقض لمنهجه في رسالته التحف في إثبات الصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو مذهب السلف رضوان الله عليهم. ٢ – نهج منهج أهل التفويض في صفة المعية في = = رسالته التحف، فلم يفسرها بمعية العلم، بل زعم أن هذا التفسير شعبة من شعب التأويل المخالف لمذهب السلف. وهذا مخالف لما ذهب إليه في تفسيره في كتابه تحفة الذاكرين من أن هذه المعية معية العلم، وفسرها هنا تفسير السلف. ٣ – ذهب مذهب الواقفية في مسألة خلق القرآن، فلم يجزم برأي هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟.

(د) في نواقض التوحيد: ١ – أجاز تحري الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين باعتبارها أماكن مباركة يستجاب الدعاء فيها. وهذا مخالف لما قرره ودعا إليه في عدد من كتبه من سد الذرائع إلى الشرك في الأموات. ٢ – جعل الحلف بالقرآن كالحلف بمخلوق من مخلوقات الله.

(هـ) في النبوات: يرى التوقف في مسألة التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم السلام. هذا وقد سلك الشوكاني رحمه الله تعالى طريقة السلف في الاستدلال لكل مسألة من مسائل العقيدة التي أثبتها، فيقدم الأدلة النقلية على العقلية، ويقدم المعنى الظاهر من النصوص على معنى المجاز منها، كما في كتابه التحف، إلا في مسألة المعية. وكذلك في تفسيره لمسألة الاستواء وغيرها من الصفات التي أثبتها في تفسيره ولم يؤولها. أما ما يظهر في كتبه من اضطراب وتناقض في هذا الباب وغيره وخالف فيه السلف أهل السنة فيمكن الاعتذار عنه بأنه نشأ وترعرع في بيئة زيدية، وكانت دراسته داخلها ولم يخرج منها، فلعل الظروف المحيطة بهذه البيئة لم تتهيأ له كثيرا للأطلاع على كتب أئمة السلف أهل السنة والجماعة. انظر: منهج الإمام الشوكاني في العقيدة لعبد الله نومسوك (ص: ٨٥٣–٨٥٧).

(١) انظر: فهرس الفهارس للكتاني (١٠٨٦/٢).

(٢) لطف الله بن أحمد بن لطف الله بن أحمد بن جحاف: مؤرخ، أديب يماني. من كتبه: (العباب في تراجم الاصحاب)، و(التاريخ الجامع). توفي سنة ١٢٤٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٢٤٢/٥).

(٣) نيل الأوطار لزبارة (٢٩٨/٢).

وقال عنه العلامة عبدالحي الكتاني[١]: "هو الإمام خاتمة محدثي المشرق وأثرِيُّه، العلامة النظار الجهبذ القاضي محمد بن علي الشوكاني ثم الصنعاني"[٢].

ولقد تولى الإمام الشوكاني القضاء في عام ١٢٠٩ من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

حيث توفي كبير قضاة اليمن، القاضي يحيى بن صالح الشجري السحولي، وكان مرجع العامة والخاصة، وعليه المعوَّل في الرأي والأحكام، ومستشار الإمام والوزارة [٣]، وبعد أسبوع على وفاة القاضي السحولي جاء طلب الخليفة للإمام الشوكاني لتولي هذا المنصب الرفيع[٤].

وربَّما أن الشوكاني رأى في منصب القضاء فرصةً لنَشْر السُّنَّة ولماتة البدعة، والدعوة إلى طريق السلف الصالح.

كما أن منصب القضاء سيصدُّ عنه كثيراً من التيارات المعادية له، ويسمح لأتباعه بنَشْر آرائه السديدة.

ولقد اشتغل الإمام الشوكاني إضافة إلى الإفتاء والقضاء بالسياسة.

وكانت ممارسته للعمل السياسي صادرة عن دافعين أساسيين:

الأول: واجبه الوظيفي. **والثاني:** قناعته الفكرية.

أما واجبه الوظيفي، فمن خلال عمله قاضياً ومفتياً للديار اليمنية كان يأخذ البيعة لأئمة عصره عند توليهم الحكم من إخوانهم وأعمامهم وسائر آل قاسم وجميع الأعيان[٥].

وهذه المهمة أكسبته نفوذاً سياسياً، ذلك أن من هذه البيعة تكون قوة الإمام (أي الخليفة) الحقيقية.

أما قناعته الفكرية فتمثلت في رفضه مبدأ اعتزال العلماء الوظائف العامة في أجهزة الحكم والدولة، معتقداً أن زهد أهل العلم في شغل مراكز التغيير والإصلاح في المجتمع يفضي إلى ابتعاد المجتمع والدولة عن شريعة الإسلام، وإلى انتشار الظلم، ومن ثَم التدهور العام للمجتمع الإسلامي[٦].

---

(١) محمد عبد الحي بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الادريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني: عالم بالحديث ورجاله. له تآليف، منها (فهرس الفهارس) و(اختصار الشمائل) وغيرها. توفي سنة ١٣٨٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي (١٨٧/٦).

(٢) فهرس الفهارس للكتاني ١٠٨٣/٢.

(٣) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٢/ ٣٣٤).

(٤) انظر: المصدر نفسه (١/ ٤٦٤ – ٤٦٦).

(٥) انظر: المصدر السابق (٣٧٧،٤٦٧/١).

(٦) انظر: الفتح الرباني للشوكاني (٤٦٧١/٩) وما بعدها.

المسألة الرابعة: وفاته

توفي الإمام الشوكاني رحمه الله ليلة الأربعاء، لثلاث بقين من شهر جمادى الآخرة، سنة (١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)، عن ستٍّ وسبعين سنة وسبعة أشهر، وصلي عليه في الجامع الكبير بصنعاء، ودفن بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء[١]، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عنا كل خير.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله:

أنا المذنب الجاني على كل حالة *** ولكنني ارجو قبول دعائي
فباب الرجا ما ضاق عني وان يضق *** ففضل إلهي فيه كل رجائي
فما طمعي في أن أجاب لصالح *** عملت، فإني عالم بخطائي
وأني مقر بالذنوب فإنني *** تحملت منها ملء كل وعاء[٢]

رحم الله الإمام الشوكاني:

فكرت في علمي وفي أعمالي *** ونظرت في قولي وفي أفعالي
فوجدت ما أخشاه منها فوق ما *** أرجو فطاحت عند ذا آمالي
ورجعت نحو الرحمة العظمى إلى *** ما أرتجي من فضل ذي الأفضال
فغدا الرجا والخوف يعتلجان في *** صدري وهذا منتهى أحوالي[٣].

---

(١) انظر: أبجد العلوم لقنوجي (٢٠٥/٣)، نيل الوطر لزبارة (٣٠٢/٢).
(٢) أسلاك الجواهر للشوكاني (ص: ٦٨-٦٩).
(٣) نيل الوطر لزبارة (٣٠٢/٢). هذا الشعر من تأليف الإمام الشوكاني نقله عنه زباره في ترجمة الإمام الشوكاني.

ج: دراسة موجزة عن كتاب إرشاد الفحول للإمام الشوكاني

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولى: توثيق كتاب إرشاد الفحول والباعث على تصنيفه.

المسألة الثانية: منهج الشوكاني في كتاب إرشاد الفحول.

المسألة الثالثة: مكانه كتاب إرشاد الفحول.

المسألة الرابعة: الأعمال التي تتابعت خدمة لكتاب إرشاد الفحول.

المسألة الأولى: توثيق كتاب إرشاد الفحول

الفرع الأول: من حيث عنوان الكتاب

لا يوجد خلاف بين أهل العلم حول اسم الكتاب الذي سماه به مؤلفه وهو(إرشاد الفحول إِلَى تَحْقِيق الْحق من علم الْأُصول).

الفرع الثاني: من حيث النسبة

لا شك في صحة نسبة هذه الكتاب إلى الإمام الشوكاني ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

١. خط الشوكاني الذي لا يخفى على الباحثين، حيث أن المخطوطات الموجودة للكتاب كما ذكر ذلك بعض من حقق الكتاب هي بخط الإمام الشوكاني.

٢. ذكر الإمام الشوكاني نفسه لهذا الكتاب في بعض مصنفاته الأخرى، ففي كتابه البدر الطالع قال الإمام الشوكاني عن نفسه: " وشرع فِي كتاب فِي أُصُول الْفِقْه سَمَّاهُ إرشاد الفحول إِلَى تَحْقِيق الْحق من علم الْأُصُول وَهُوَ الْآن فِي عمله أعَان الله على تَمَامه ثمَّ تم ذَلِك بِحَمْد الله فِي مجلد"(١).

٣. جميع من ترجم للإمام الشوكاني ذكر هذا الكتاب من مصنفاته.

٤. جماهير من كتب في علم أصول الفقه بعد الشوكاني ذكر هذا الكتاب ونسبه إليه، بل ونقل منه.

٥. طبع الكتاب منذ أكثر من مائة سنة ولم يجرؤ أحد على على الإقدام على إنكار نسبة الكتاب إلى صاحبه. فكل هذا يؤكد لنا نسبة الكتاب(إرشاد الفحول) إلى الإمام الشوكاني.

الفرع الثالث: الباعث على تصنيف كتاب إرشاد الفحول

أفصح الإمام الشوكاني في مقدمة كتابه إرشاد الفحول عن المقصد الذي توخاه من تحقيق علم أصول الفقه، وعن مجالات هذا التحقيق فقال: "حملني ذلك بعد سؤال جماعة لي من أهل العلم على هذا التصنيف في هذا العلم الشريف قاصداً به إيضاح راجحه من مرجوحه، وبيان سقيمه من صحيحه، موضحاً لما يصلح منه للرد إليه وما لا يصلح للتعويل عليه، ليكون العالم على بصيرة في علمه، يتضح له بها الصواب، ولا يبقى بينه وبين درك الحق الحقيق بالقبول"(٢).

---

(١) البدر الطالع للشوكاني (٢٢٣/٢).

(٢) إرشاد الفحول للشوكاني (١٦/١). ويقول الإمام الشوكاني عن سبب تأليفه: وكثيراً ما يتمسك المصنفون بمقالات أصولية أصلها مبني على الراي فيرجعون إلي الرأي من حيث لا يشعرون ولهذا الفت كتأبي في الاصول. الذي سميته إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول. انظر: السيل الجرار للشوكاني ص٢٨٥.

المسألة الثانية: منهج الشوكاني في كتاب إرشاد الفحول

بعد خطبة الكتاب رتبه على مقدمة وسبعة مقاصد وخاتمة. تناول في المقدمة تعريف الفن ذاكراً موضوعه وفائدتها واستمداده، متوسعاً في كل نقطة بعرض شيق وأسلوب سلس سهل، ويسترسل في بحث العلم والنظر والدليل وما وراء ذلك من مبادئ الأصول، وعلى هذا النموذج سار في عرض الحكم والواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح والشرط والمانع. ثم تحدث في أحد بنود المقدمة عن بعض المبادئ اللغوية، الذي يتناول في صلبه ماهية الكلام، أو عن كيفية دلالته، وفي ذلك بحوث خمسة بسطها واحدا تلو الآخر معطيا كل بحث ما يتفق ومدلوله. إثر هذا عرض لتقسيم اللفظ إلى مفرد، ومركب، متحدثا عن الاشتقاق الواقع بين اللفظين المتناسبين في المدلول والتركيب، ومن هنا انحدر صاحب الكتاب للحديث عن الحقيقة والمجاز وتعريفهما بما يشفي صدر المستطلع في الموضوع ومبينا أنواع الحقيقة لغوية وعرفية وشرعية مدللا على ذلك بأمثلة حية يستسغيها الطالب عن كثب دون أن يجد مشقة في اقتباسها عن فهم. بعد هذا المدخل القيم الذي عرض له كتاب الإرشاد بأسلوب مبسط دخل إلى المقصد الذي هو عبارة عن أصول التشريع الأربعة الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

فيأخذ في عرض الأصل الأول في التشريع وقوانينه معرفا الكتاب المقدس (القرآن) ومسهباً في بيان ذلك بعبارات سهلة يدركها الفهم والذهن دون ما عسر يجده الطالب في صلب بحوث الكتاب كالمنقول آحداً هل يعتبر قرآنا أم لا؟ وكالعرض للبسملة وتحقيق أنها آية من كل سورة، وكبحث المحكم والمتشابه من القرآن ووجود المعرب فيه بما يقرب من المائة كلمة. ومن القرآن انتقل للحديث عن السنة الأصل الثاني بنفس الأسلوب في العرض والتعبير فعرف السنة بما تحمله لغة وشرعا متحدثا عن ذاتيتها واستقلالها بالتشريع وأنها كالكتاب المقدس في تحليل الحلال وتحريم الحرام بالنص الثابت، كتحريم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير وغير ذلك مما لم يأت عليه الحصر. فكانت لهذا حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورية دينية لا يخاف فيها إلا مذبذب. ثم تعرض الكتاب للبحث عن عصمة الأنبياء ومعناها، والحديث عن أفعال الرسول وتقسيمها إلى سبعة معان شارحا ما إذا تعارض قوله عليه السلام مع فعله وما تنطوي عليه هذه المعارضة من مشاكل ككون القول خاصا به أو عاما له وللأمة أو خاصا بالأمة كل هذه التقسيمات وما إليها يبينها الكتاب بيانا واضحا قد لا يوجد في مثله من كتب الفن ومن هذا البحث دخل للأخبار والحديث عن مفردها وما يحمله من معنى لغة واصطلاحا. بعد هذا تحدث عن المقصد الثالث من مقاصد التشريع وهو الإجماع فأتى بمعنييه اللغوي والشرعي متكلما

عن إمكانيته وإمكان العلم به ونقله إلى من يحتج به، وعارض لحجيته. وفي هذه الأثناء بسط الكلام عن عدم حجة إجماع أهل المدينة وإجماع الخلفاء الأربعة لأنهم بعض الأمة، وما إلى هذا مما تناوله الموضوع في هذا المقصد التشريعي الهام الطويل العرض والشائك المقدمات والغايات وبالرغم من ذلك كله نجد الكتاب يهضم الكل في طياته السهلة كالعادة ثم أورد بحثا مهما له قيمته الأساسية تناول فيه الأوامر والنواهي، والعموم والخصوص، والإطلاق – والتقييد، والإجمال والتبيين، والظاهر والمؤول، والمنطوق والمفهوم، والناسخ والمنسوخ. شارحاً كل نوع على حدة إزاء مثاله ودليله رغبة منه في زيادة البيان والإيضاح. وها هو كتابنا الإرشاد يشرف على الختم بعرض الأصل الرابع من أصول التشريع الإسلامي بروح القلم وبنفس الطريقة التي ألفناها فيه فيعرف القياس لغة واصطلاحا ويذكر حجيته وهل هو دليل بالشرع أو بالفعل وعلى الأول الأكثر وذاكرا أول من باح بإنكاره – كالنظام وقوم من المعتزلة.

عقب هذا بسط أركانه وشروطه ومعنى العلة لغة والأقوال التي وردت فيها اصطلاحا، والخلاف في جواز تعدد العلل، وما إلى هذا من عرض شروط الفرع وذكر مسالك العلة وأنواعها كمسلك الإجماع ومسلك النص.

ومن أهم ميزات منهجه في الكتاب:

١. اشتمله على آراء المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء والأصوليين، ومن جميع الفرق الإسلامية، وقد تم له الاستقصاء في البحث والاستقراء للمذاهب حتى وصل في بعض المسائل إلى أن يذكر فيها بضعة وثلاثين قولاً ، فيورد القول وأدلته ويناقش تلك الأدلة، ويورد الاعتراضات، والإجابة عليها إجابة مقنعة صريحة، مع ذكر الشواهد والأمثلة، والتعليل والقيود، والمحترزات ويوازن بينها ثم يرجح وهكذا. فهو بحق نهج واضح وطريقة مثلى في التأليف والبحث، وخاصة في طريقة المتكلمين من حيث الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، وتحقيق المذاهب وتفريع المسائل، يشهد بذلك كل من قرأ شيئاً من هذا الكتاب.

٢. كثيراً ما يذكر الإمام الشوكاني اختلاف الأصوليين في التعريفات، ويورد تعريفات كثيرة للشيء المعرَّف، ويذكر الاعتراضات الواردة على التعريف، والإجابة عليها، كما فعل في تعريف أصول الفقه، وتعريف العلم والدليل والنظر، ونحو ذلك.

٣. في الغالب يبدأ بأقوى التعاريف وأرجحها، فيرتبها على هذا الأساس ثم يورد بقية التعريفات بصفة التمريض (وقيل) ويعترض عليها بكون التعريف – مثلاً – غير جامع وغير مانع، أو كونه يستلزم المحال كالدوران أو التسلسل أو اجتماع النقيضين، أو يكون الاعتراض على التعريف بسبب التناقض

ونحو ذلك. ويشير إلى التعريف الراجح بعده مباشرة بقوله: **(وهو الحق)**، وإذا كان التعريف الراجح هو الأول ولم يشر إليه مباشرة يقول: **(والأول أولى)**. وهذا منهجه حتى في ذكر الأقوال والمذاهب الواردة في كل مسألة.

٤. يحرر محل النزاع، وخاصة إذا كانت المسألة متشعبة، وتحتاج إلى هذا التحرير قبل البحث في أقوال العلماء والأدلة. وهذا منهج سوي، يحدد محال الاتفاق ومحال الاختلاف، حتى تنحصر الأمور التي يجري فيها النزاع، وبالتالي تكون الأدلة وفق هذا المنهج.

٥. قوة شخصيته: والتي تتمثل في تمحيصه للآراء، وترجيح بعضها، أو ردها وتكوين رأى خاص به.

٦. الجمع بين علم الأصول وعلم الحديث.

٧. الموضوعية والبعد عن التعصب: وهذه سمة بارزة في منهج الإمام الشوكاني: إنها صفة تجعل للعالم مكانته المرموقة بين العلماء، حيث يكون هدف العالم من وراء بحثه هو معرفة الحق أينما كان، وحيثما وجد، ولقد كان الهدف الأول لإمامنا هو الوصول إلى الحق، ولا يعنيه أنه مذهب شخص معين، مهما كانت منزلته. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ومنها:

- مع أنه يرى عدم إمكانية وقوع الإجماع، وينكر الاحتجاج به فإنه ينقل آراء العلماء وأدلتهم في مسألة الإجماع السكوتي – وهو من أضعف أنواع الإجماع – نقلاً دقيقاً، ويرجح من هذه الآراء ما يراه راجحاً، وناقش تلك الأدلة بسياق تشعر من خلاله أنك أمام أحد أنصار الإجماع ومؤيديه.

المسألة الثالثة: مكانة كتاب إرشاد الفحول

يعتبر كتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول من فرائد ما أُلف في علوم أصول الفقه.

يقول العلامة محمد صديق خان(١):" وله إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول يعز نظيره وترصيفه وحسن ترتيبه وتصنيفه"(٢).

ويقول الشيخ الألوسي(٣):" وإن شئت زيادة الإطلاع على مباحث الاجتهاد ، فعليك أولاً بكتاب (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) للعلامة المجتهد الرباني شيخ شيوخنا قاضي القضاة"(٤).

ويقول محقق كتاب إرشاد الفحول:" وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الجامعة لقضايا هذا الفن بتحقيق دقيق، وأسلوب رائق، وعرض فائق"(٥).

ويقول الشيخ ولي الدين صالح فرفور الدمشقي: " وبعد: فإن كتاب إرشاد الفحول لمؤلفه الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، الصنعاني، اليماني، من الكتب المفيدة في هذا المجال، لما احتوى عليه من كثرة النقول وعزو الأقوال إلى قائليها من أئمة هذا العلم. ولقد سلك مؤلفه مسلك المتكلمين والفقهاء، واعتنى بإيراد القواعد والمسائل الأصولية واختلاف العلماء فيها مبينا دليل كل من غير تقيد بأصول مذهب معين، فهو أشبه ما يكون بأصول الفقه المقارن"(٦).

---

(١) محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب: من رجال النهضة الاسلامية المجددين. له نيف وستون مصنفا بالعربية والفارسية والهندسية. منها بالعربية (حسن الاسوة في ما ثبت عن الله ورسوله في النسوة) و(أبجد العلوم – ط). توفي سنة ١٣٠٧هـ. انظر: الأعلام للزركلي (١٦٧/٦).

(٢) أبجد العلوم للقنوجي (٢٠٢/٣).

(٣) نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين: واعظ فقيه، باحث، من أعلام الأسرة الآلوسية في العراق. من كتبه (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين). توفي سنة ١٣١٧ هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٤٢/٨).

(٤) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للألوسي (٢٠٤/١).

(٥) إرشاد الفحول للشوكاني: تحقيق سامي الأثري (٨/١).

(٦) إرشاد الفحول للشوكاني (٧/١).

المسألة الرابعة: الأعمال التي تتابعت خدمة لكتاب إرشاد الفحول

الفرع الأول: طبعات الكتاب

١. طبعة تحقيق صبحي حلاق اليمني جيدة في مجلد واحد دار ابن كثير.
٢. طبعة دار الفضيلة، بتحقيق: سامي العربي، في مجلدين.
٣. طبعة دار الكتبي سنة ١٤١٣هـ، بالقاهرة بتحقيق الدكتور شعبان محمد اسماعيل.
٤. طبعة دار السعادة سنة ١٣٢٧هـ.
٥. الطبعة المنيرية سنة ١٣٤٧هـ، دار المعرفة.
٦. طبعة مصطفى البابي الحلبي
٧. نسخة مكتبة الكتب الثقافية سنة ١٤١٢هـ، تحقيق محمد سعيد البدري
٨. طبعة دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية.

كما قام العلامة محمد صديق خان باختصار كتاب ارشاد الفحول و سماه " حصول المأمول من علم الأصول ".

الفرع الثاني: الدراسات التي تناولت كتاب إرشاد الفحول

إن الذي يبحث اليوم في فهارس الرسائل الجامعية يجد جمعاً من الرسائل بدرجتيها الماجستير والدكتوراه قد تعرضت لخدمة كتاب إرشاد الفحول سواء كان ذلك باستنباط قواعده وضوابطه، أم بتجريد اختيارته الأصولية، إلى غير ذلك من الأعمال التي تساهم في خدمة هذا الكتاب الجليل، وسوف أذكر بعض من تلك الرسائل الخاصة بفن أصول الفقه على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر:

١. الاختيارات الأصولية للإمام الشوكاني في باب المجمل والمبين والظاهر والمؤول والمنطوق والمفهوم والنسخ من خلال كتابه إرشاد الفحول (بحث ماجستير)، إعداد الباحث /نجم الدين علي علي رشيد، إشراف/أ.د/ حسن الأهدل، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ.
٢. اختيارات الإمام الشوكاني في باب العام والخاص من خلال كتابه إرشاد الفحول(بحث ماجتسير)، إعداد الباحث / محمد عبد الملك أحمد عرارة، إشراف/ أ.د/ صالح بن عبد الله الظبياني.
٣. اختيارات الإمام الشوكاني في مبحث السنة الأصولي من خلال إرشاد الفحول(بحث ماجستير)، إعداد الباحث: محمد علي الرداعي، إشراف الدكتور: صالح أحمد الوعيل.
٤. المصطلح الأصولي عند الإمام الشوكاني وأثره في الفقه الإسلامي(بحث دكتوراة)، إعداد الباحث / د / عبد الله علي هاجر، جامعة القروية، المغرب، ٢٠١٠م.

الفرع الثالث: هل كتاب إرشاد الفحول ماهو إلا مجرد اختصار لكتاب البحر المحيط للزركشي

ذكر غير واحد أن كتاب إرشاد الفحول ماهو إلا مجرد اختصار للبحر المحيط، لذا يقول الدكتور موسى القرني: "وقد صنف العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٥هـ كتابه المعروف بـ" إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول" ويظهر – و الله أعلم – أنه اختصار شديد لكتاب الزركشي[١]، وإن كان المصنف لم يشر إلى هذا، لكن الذي يرى ما فيه من استقصاء لأقوال العلماء في المسائل الأصولية يغلب على ظنه ما ذكرناه – و الله اعلم– "[٢].

وقال الشيخ محمد الجيزاني: "والشوكاني (١٢٥٥هـ) في كتابه إرشاد الفحول إنما رجع إلى البحر المحيط ونهل منه"[٣]. ووافقه محقق كتاب إرشاد الفحول الشيخ سامي الأثري[٤].

لكن يرى أحد الباحثين أن هذا الكلام عار عن الصحة حيث يقول: " وما من شك أن " البحر المحيط " من المراجع المهمة للشوكاني ولكنه لا يصل إلى أن يكون مختصراً عنه بل ولا أن يكون مصدره الأول ولقد قرأت " إرشاد الفحول " أربع مرات وتم لي استقراء الكتب التي لها الصدارة في مرجعية الإرشاد فوجدتها على النحو الآتي:

١. متن الغاية وشرحه " هداية العقول " للحسين بن القاسم حيث نقل عنه كثيراً وخاصة في المبادئ، والمصطلحات، ولم يشر إليه ضمن مراجعه مطلقاً.
٢. كتاب المحصول من علم الأصول لفخر الدين الرازي حيث نقل عنه (١٣٢) مرة.
٣. التقريب للقاضي عبدالوهاب المالكي حيث نقل عنه (٣٤) مرة.
٤. البحر المحيط للزركشي حيث نقل عنه (٣١) مرة.
٥. مختصر المنتهى لابن الحاجب حيث نقل عنه (١٨) مرة.
٦. البرهان لإمام الحرمين حيث نقل عنه (١٦) مرة.
٧. المنخول للغزالي حيث نقل عنه (١٥) مرة.

---

(١) بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، أبوعبد الله، له تصانيف كثيرة، منها: (الروضة)، و(شرح المنهاج)، و(الديباج) (البحر المحيط في أصول الفقه)، (البرهان في علوم القرآن) وغيرهما، مات سنة ٧٩٤هـ. انظر: حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٤٣٧)، الأعلام للزركلي (٦/ ٦٠).

(٢) مرتقى الوصول إلى تاريخ علم الأصول لموسى القرني ص٤٠.

(٣) سلسلة المصادر الأصولية للجيزاني ص ١١.

(٤) إرشاد الفحول للشوكاني (تحقيق: سامي الأثر) ١/٢٥.

٨. الوجيز لابن برهان حيث نقل عنه (١٤) مرة.

٩. المعتمد لأبي الحسين البصري حيث نقل عنه (١٣) مرة.

١٠. اللمع للشيرازي حيث نقل عنه (١٢) مرة.

١١. مختصر التقريب للقاضي عبدالوهاب حيث نقل عنه (١٠) مرات.

١٢. كتاب الأوسط لابن برهان حيث نقل عنه (١٠) مرات.

هذه أهم مصادر الكتاب التي ذكرها المؤلف ونقل منها عشر مرات فأكثر.

فظهر من خلال هذا العرض عدم صحة دعوى كون إرشاد الفحول مختصراً للبحر المحيط وذلك لما يتميز به كتاب " الإرشاد " من مميزات لا توجد في غيره ولا ينافسه فيها كتاب من كتب الأصول استقصاء وتحريراً وعرضاً واستدلالاً وتمحيصاً، ولو كان مبدأ هذا الادعاء يصح على صاحب " الإرشاد " لكان أحق المؤلفين به الإمام الحسين بن القاسم بن محمد صاحب متن غاية السؤل إلى علم الأصول وشرحه – له أيضاً – هداية العقول.

ولعل للإمام الشوكاني عذر في هذا وهو أنه درس متن الغاية وشرحه على شيوخه وحفظه واستوعبه، ثم درَّسه لتلاميذه مراراً، فتأثر بمنهجه وطريقته واستظهر مادته العلمية في ذاكرته حتى صار جزءاً من ثقافته الأصولية، وأخذ يكتب ويملي من ذاكرته، فلم يعد بحاجة إلى الرجوع إلى الغاية وشرحه، وبالتالي فلا داعي إلى العزو والإحالة طالما أنه لم يرجع إليه أثناء تحريره، لاسيما وأن كتاب الغاية وشرحه قد قرب من بلوغ الغاية في إيجازه ووضوحه وشموله ودرره وتحقيقاته إلا أنه لا يرقى إلى مستوى " إرشاد الفحول " في خصائصه التي تميز بها وذكرناها سابقاً، والله أعلم بالصواب[1].

ولم يتسنى للباحث الوقت للرجوع والتأكد من صحة هذا الكلام، لكن **يرجح** الباحث من خلال اطلاعه خلال بحثه في كتاب (إرشاد الفحول) أن الإمام الشوكاني قد أكثر النقل والاستفادة جداً من كتاب " البحر المحيط " للزركشي، حتى يتوهم الناظر أنه أختصره؛ لكثرة ما نقل منه.

---

(١) الباحث يرمز لنفسه بـ السيل الجرار، مميزات المنهج الأصولي للإمام الشوكاني، ٢٠٠٩/٤/٣، (/http://majles.alukah.net/t30435)

الفصل الأول

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم.

المبحث الثاني: حجية القرآن الكريم.

المبحث الثالث: في ترتيب سور القرآن الكريم.

المبحث الرابع: الحروف السبعة.

المبحث الخامس: المعرب في القرآن الكريم.

المبحث السادس: المتشابه في القرآن الكريم.

المبحث السابع: في ما نقل آحاداً من القرآن الكريم.

تمهيد:

لقد اختار الله لوحيه ألقاب جديدة، مخالفة لما سمَّى العرب به كلامهم جملة وتفصيلاً [١]. وروعيت في تلك الألقاب أسرار التسمية وموارد الاشتقاق.

واشتهر منها لقبان: (الكتاب)، و(القرآن).

وفي تسميته بـ(الكتاب) إشارة إلى جمعه في السطور؛ لأن الكتابة: جمع للحروف، ورسم للألفاظ. كما أن في تسميته بـ(القرآن) إيماءة إلى حفظه في الصدور؛ لأن القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استذكار، فهذا الوحي العربي المبين قد كُتب له من العناية به ما كفل صيانته في حرز حريز، وما جعله بنجوة من خوض العابثين، وتلاعب المحرِّفين؛ إذ لم ينقل كجميع الكتب بالكتابة وحدها، ولا بالحفظ وحده، بل وافقت كتابته تواتر إسناده، ووافق إسناده المتواتر نقل الأمين الدقيق.

يقول الدكتور/ محمد عبد الله دراز[٢]: "روعي في تسميته (قرآنا) كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته (كتاباً) كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه: العناية بحفظه في موضعين لا في موضعٍ واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتبٍ حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر"[٣].

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٨٦).

(٢) محمد بن عبد الله دراز: فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، له كتبَ منها: (الدين)، و(النبأ العظيم). توفي سنة ١٣٧٧هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٤٦).

(٣) النبأ العظيم لمحمد دراز (ص:٤١-٤٢).

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم

المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحاً

المسألة الأولى: تعريف القرآن الكريم لغة

القرآن في اللغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة:١٧-١٨]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل: اسما للكلام المعجز الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

قال الرازي[١]: "قرأ الكتاب قراءة وقرآنا – بالضم – وقرأ الشيء قرآنا – بالضم أيضا – جمعه وضمَّه، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور ويضمُّها"[٢].

وقال ابن منظور[٣]: "وسمِّي قرآنا؛ لأنه يجمع السور فيضمها"[٤].

وقد اختلف العلماء في لفظ (القرآن)، لكنهم اتفقوا على أنه اسم، فليس بفعل ولا حرف، وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية؛ إما أن يكون جامداً، أو مشتقاً[٥].

وعلى العموم هناك خمسة أقوال في اشتقاق لفظ القرآن هي:

القول الأول: أن لفظ القرآن المعرَّف بأل ليس مهموزاً ولا مشتقّاً، بل وضع علَما على الكلام المنزَّل على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا القول مروي عن الإمام الشافعي رضى الله عنه.

يقول الإمام الشافعي: "وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين[٦] وكان يقول: القرآن اسم، وليس

---

(١) محمد بن عمر بن الحسين، الطبرستاني، الرازي، الشافعي، المعروف بالفخر الرازي، وبابن خطيب الري، أبوعبد الله، مفسر، متكلم، فقيه، أصولي، شاعر، أديب، طبيب، ومن آثاره: (مفتاح الغيب)، و(المحصول). توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٥٠٠)، طبقات الشافعيين لابن كثير ص٧٧٨.

(٢) مختار الصحاح للرازي ص٢٤٩.

(٣) محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الإمام اللغوي الحجة، ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره. من أشهر كتبه: (لسان العرب)، و(مختار الأغاني)، و(مختصر مفردات ابن البيطار)، توفي سنة ٧١١هـ. انظر: حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٥٣٤)، الأعلام للزركلي (٧/ ١٠٨).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ١٢٨).

(٥) انظر: دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي ص١٨.

(٦) إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، أبو إسحاق المكي، شيخ الإقراء بمكة، آخر من بقي من أصحاب عبد الله بن كثير، قرأ عليه: عكرمة بن سليمان، والشافعي وغيرهما، وقد اختلف الناقلون لموته، فقيل: سنة سبعين ومائة، وقيل سنة: تسعين ومائة. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٥٨١).

بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت كان كل ما قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل، تهمز (قرأت) ولا يهمز (القرآن)، ولذا قرأت القرآن تهمز قرأت، ولا تهمز القرآن"[١].

القول الثاني: أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء؛ إذا ضممته إليه، ثم جعل علَماً على اللفظ المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمِّي بذلك لقران السورة والآيات والحروف فيه بعضها ببعض، وهذا القول منقول عن الإمام الأشعري [٢]، قال الإمام الزركشي: "وذهب آخرون إلى أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، فسمي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة: قران"[٣].

القول الثالث: أنه مشتق من القرائن؛ لأن الآيات فيه يصدِّق بعضها بعضاً، وجعل علَماً على اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو رأي الفراء[٤]، ونقل الزركشي عن بعض المفسرين قولَهم: القران بغير همز مأخوذ من القرائن؛ لأن الآيات منه يصدِّق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضا، فهي حينئذ قرائن[٥]، وعلى هذا فلفظ القرآن على هذين القولين غير مهموز – كالذي قبلهما – ونونه أصلية.

القول الرابع: أن لفظ القرآن وصفٌ على وزن فعلان، مهموز، مشتق من (القَرء) بمعنى الجمع، ومنه: قرأت الماء في الحوض إذا جمعته، وسمِّي الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا؛ لأنه جمع السور، أو جمع ثمرات الكتب السابقة، وهذا القول للزجاج[٦]، وقد قال تعليقاً على القول السابق فيما نُقِلَ عنه: "وهذا القول سهو، والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف، ونقل حركة الهمزة إلى السَاكن قبلها"[٧].

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/٢٧).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٨).

(٤) الفرّاء، أبو زكريّا يحيى بْن زياد بْن عَبْد الله بْن منظور الأَسَديّ، مولاهم، الكُوفيُّ النحْوي، له: كتاب في (معاني القرآن) وغير ذلك، توفي سنة ٢٠٧هـ، وهو في طريقه للحج. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ١١٨)، إنباه الرواة للقفطي (٤/ ٧).

(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٨).

(٦) إبراهيم بْن السَّرِي بْن سهل، أبوإِسحَاق الزّجّاج النَّحوي، لَه تصانيف منها: (معاني القرآن)، و(الاشتقاق)، توفي سنة ٣١١هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٢٣٢)، معجم الأدباء للحموي (١/ ٥١).

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٨)، معترك الأقران للسيوطي (٢/ ٣٢٩).

القول الخامس: وهو للّحياني[١] وجماعة، حيث ذهبوا إلى القول بأنه مصدر مهموز بوزن (الغفران)، سمي به المقروء، من تسمية المفعول بالمصدر[٢].

والخلاصة مما سبق: أن هناك خمسة أقوال في اشتقاق لفظ القرآن ألخصها بما يلي:

١- ما ذهب إليه الشافعي: أنه ليس مهموزاً ولا مشتقاً، بل وضع علَماً على الكلام المنزل.

٢- ما نقل عن الأشعري وغيره: أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، ثم جعل علَماً على اللفظ المنزل، وسمي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض.

٣- ذهب الفراء إلى أنه مشتق من القرائن؛ لأن الآيات فيه يصدِّق بعضها بعضاً، وجعل علَماً على اللفظ المنزل لذلك، وهو على هذين غير مهموز أيضا كالذي قبلهما، ونونه أصلية.

٤- قال الزجاج: هو وصف على وزن فعلان، وهو مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته، وسمي الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآنا لأنه جمع السور، أوجمع ثمرات الكتب السابقة.

٥- ما ذهب إليه اللحياني وجماعة: أنه مصدر مهموز بوزن الغفران، سمي به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر[٣].

المسألة الثانية: تعريف القرآن الكريم اصطلاحاً

إن القرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، وإنما الحد الحقيقي له هو استحضاره معهوداً في الذهن، أومشاهداً في الحس، كأن تشير إليه مكتوباً في المصحف، أو مقروءاً باللسان، فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين، أوتقول: هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:١-٢]... إلى قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦]، أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية؛ فإنما أرادوا به تقريب معناه، وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً، وذلك أن سائر كتب الله تعالى، والأحاديث القدسية، وبعض الأحاديث النبوية، تشارك القرآن في

---

(١) علي بن المبارك – وقيل: ابن حازم – أبو الحسن اللحياني، المعروف بابن الزاهدة النحوي، اللغوي المشهور، صاحب (كتاب النوادر)، وقيل: سمي اللحياني لعظم لحيته. توفي سنة ٥٩٤هـ. انظر: بغية الوعاة للسيوطي (٢/ ١٨٥)، نزهة الألباء للأنباري ص١٣٧.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ١٨٢).

(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش (٤/ ٢١٦).

كونها وحياً إلهياً، فربما ظن ظانّ أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع(١).

ومن التعاريف التي ذكرها العلماء للقرآن الكريم ما يلي:

أ – اسم للمتلُو المحفوظ المرسوم في المصاحف(٢).

ب – اسم لما بين الدفتين من كلام الله(٣).

ج – اللفظ المنزّل على النبي صلى الله عليه وسلم، من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس(٤).

د – اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، للإعجاز بسورة منه، المتعبد بتلاوته(٥).

هـ – المنزّل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة(٦).

و– كلام الله المعجِز، المنزّل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي المنقول إلينا بالتواتر(٧).

ز – كلام الله المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبَّد بتلاوته.

ح – وقد عرفه صاحب المراقي في ألفيته بقوله:

لفظ منزّل على محمد ** لأجل الإعجاز وللتعبد(٨).

والخلاصة أن العلماء عرفوا القرآن تعريفات لا يخرج بعضها عن تعريف بعض.

---

(١) انظر: النبأ العظيم لمحمد دراز ص٤٣، مباحث في علوم القرآن للقطان ص١٦.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٦٨).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٥/ ٢٥٣).

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ١٨).

(٥) انظر: الغيث الهامع للعراقي ص١٠٥.

(٦) التعريفات للجرجاني ص١٧٤.

(٧) معجم لغة الفقهاء لمحمد رواس وحامد صادق ص٣٥٩.

(٨) شرح مراقي السعود للشنقيطي (١/ ٦٧). البيت رقم١٢٤ من المنظومة.

المطلب الثاني: تعريف الإمامين ابن حزم والشوكاني للقرآن الكريم

المسألة الأولى: تعريف الإمام ابن حزم للقرآن الكريم

عرف الإمام ابن حزم القرآن بقوله: "هو المكتوب في المصاحف، والمسموع من القارئ، والمحفوظ في الصدور، والذي نزل به جبريل على قلب محمد – صلى الله عليه وسلم – كل ذلك كتاب الله تعالى، وكلامه القرآن حقيقة لا مجازاً..."(١).

ومما يلاحظ على هذا التعريف: أنه لا يشمل على وصف الإعجاز الذي يعد من أبرز خصائص القرآن الكريم. ورغم أن الإمام ابن حزم لم يذكر ذلك في تعريفه للقرآن الكريم، لكنه يعتبر القرآن الكريم معجزٌ كله، لذا نجد الإمام ابن حزم يقول: "وذهب سائر أهل الإسلام إلى أن القرآن كله – قليله وكثيره – معجز، وهذا هو الحق الذي لا يجوز خلافه"(٢).

ويقول أيضاً: "أن الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين:

أحدهما: وحي متلوٌّ مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن..."(٣)، ثم ذكر القسم الثاني وهو السنة النبوية.

المسألة الثانية: تعريف الإمام الشوكاني للقرآن الكريم

عرف الإمام الشوكاني الكتاب في اللغة، فقال: "يطلق على كل كتابة ومكتوب، ثم غلب في عرف أهل الشرع على القرآن"(٤).

ثم عرف الإمام الشوكاني القرآن في اللغة، فقال: "مصدر بمعنى القراءة، غلب في العرف العام على المجموع المعين من كلام الله سبحانه، المقروء بألسنة العباد، وهو في هذا المعنى أشهر من لفظ (الكتاب) وأظهر، ولذا جعل تفسيرا له، فهذا تعريف الكتاب باعتبار اللغة، وهو التعريف اللفظي الذي يكون بمرادف أشهر"(٥).

---

(١) المحلى بالآثار لابن حزم (١/ ٥٢).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣/ ١٣).

(٣) الإحكام. لابن حزم (١/ ٩٧).

(٤) إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٨٥).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٨٥).

ونقل الإمام الشوكاني مجموعة من تعاريف أهل العلم للقرآن الكريم اصطلاحاً، منها، أنه:

- اللفظ العربي المنزل للتدبر والتذكر، المتواتر.
- الكلام المنزل للإعجاز بسورة منه.
- كلام الله العربي الثابت في اللوح المحفوظ للإنزال.

ثم عرف الإمام الشوكاني القرآن، فقال: "والأولى أن يقال: هو كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتلو المتواتر، وهذا لا يرِد عليه ما ورد على الحدود. فتدبر"(١).

ومما يلاحظ أيضاً على هذا التعريف: أنه لا يشمل على وصف الإعجاز الذي يعد من أبرز خصائص القرآن الكريم.

ورغم ذلك فإن الإمام الشوكاني يعتبر القرآن معجزاً، حتى وإن لم يذكر ذلك في تعريفه؛ فقد قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٠]: "أي: أدخلناه في قلوبهم – يعني: القرآن – حتى فهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز"(٢).

مما سبق يمكن أن يلاحظ أن الإمام ابن حزم والإمام الشوكاني اتفقا في تعريف القرآن الكريم في هاتين النقطتين:

- أنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتلو.
- عدم ذكر أنه معجز في التعريف، رغم أنهما يقولان به.

أما وجه الاختلاف في تعريف القرآن الكريم بين الإمامين فهو:

عدم ذكر ابن حزم شرطَ التواتر عند تعريفه القرآن الكريم، مع أنه يشترطه في مواضع أخرى، كما في قوله: "ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا، والذي ألزمنا الإقرار به، والعمل بما فيه، وصح بنقل الكافة الذي لا مجال للشك فيه أن هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف..."(٣).

---

(١) المصدر السابق ١/ ٨٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٣٧).

(٣) الإحكام لابن حزم (١/ ٩٥).

المبحث الثاني: حجية القرآن الكريم

المطلب الأول: تأصيل المسألة

القرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول الشرع(١)، وهو حجة من كل وجه؛ لتوقف حجية غيره من الأصول عليه، وثبوتها به، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن الله تعالى، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم إنما صار حجة بالكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر:٧] .

والقرآن الكريم حجة؛ لأنه قد ثبت بالتواتر الذي يوجب القطع بصدوره ونسبته إلى الله عز وجل. ويكفى حجة على ذلك: ثبوت إعجازه بأسلوبه ومضامينه، وتحديه لبلغاء عصره ومن بعدهم؛ وعلى هذا فحجية القرآن ثابتة على جميع البشر.

وإضافة إلى هذا يستأنس لحجيته: بتأكيد الله تعالى على عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله في مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

كذلك يستأنس لحجيته: بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((فإن هذا القرآن سببٌ(٢)، طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم؛ فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا))(٣).

وقد **اتفق المسلمون** قاطبة على حجية الكتاب الكريم، وأنه يجب العمل بما ورد فيه، والرجوع إليه؛ لمعرفة حكم الله تعالى، ولا يجوز العدول عنه إلى غيره من مصادر التشريع إلا إذا لم يقف العالم على الحكم فيه؛ وذلك لأن القرآن هو كلام الله، وقد ثبت أن الله تعالى لا يتكلم بالباطل(٤)،

---

(١) انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (١/ ٣٨)، المستصفى للغزالي ص٨٠، الموافقات للشاطبي (٤/ ١٩٧).

(٢) وفي هذا بيان أن الاعتصام بكتاب الله سبب العصمة من الضلال، ولا يتم ذلك إلّا بالإقبال عليه تعلّما وتدبرا وعملا.

(٣) أخرجه: الهيثمي في موارد الظمآن برقم " ١٧٩٢" (٦/ ١٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم "٣٠٠٠٦" (٦/ ١٢٥)، والبزار في مسنده برقم "٣٤٢١" (٨/ ٣٤٦)، وابن حبان في صحيحه برقم " ١٢٢" (١/ ٣٢٩)، والطبراني في المعجم الصغير برقم "١٠٤٤" (٢/ ٢٠٩)، والمعجم الكبير برقم "١٥٣٩" (٢/ ١٢٦).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٦٩): رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

(٤) انظر: تقويم الأدلة لأبي زيد الدبوسي ص٢١.

ومما يستدل به أيضاً على حجية القرآن الكريم ما يلي:

١ – أنه منقول إلينا بالتواتر، فهو ثابت قطعاً[١] إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الصادق الأمين، الذي نقله عن جبريل عن اللوح المحفوظ، والتواتر يفيد العلم اليقيني القطعي الذي لا يحتمل غيره.

وتواتر القرآن الكريم جعلَه في مأمن من أن يمس بيد البشر، فقد قيض الله له حفظة بحيث لو زِيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأطفال الأصاغر، فضلاً عن القراء الأكابر[٢].

٢ – جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنطق أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ ﴾ [آل عمران:٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [النساء:١١٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [النساء:١٠٥].

٣ – إعجاز القرآن الكريم، وهو الدليل الجازم على كون القرآن الكريم من كلام الله تعالى، أنزله على محمد – صلى الله عليه وسلم – ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا، وقد عجز البشر أن يأتوا بمثله[٣].

لهذا يجب الأخذ بالقرآن الكريم، والامتثال لما جاء فيه، وإذا كان القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام؛ فهو كذلك المصدر الأول للثقافة الإسلامية، فكل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع في أصولها إلى القرآن – العقائد والمفاهيم والقيم والعبادات والشعائر والأخلاق والآداب والقوانين والشرائع – كل هذه قد وضع القرآن الكريم أُسسها، وأرسى دعائمها.

فالقرآن الكريم حجة على الناس، وأحكامه قانون واجب عليهم اتباعه؛ لأنه أساس الدين، وحبل الله المتين الذي أمر بالاستمساك به، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٩٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٩٣).

(٣) انظر: التمهيد في أصول الفقه للكلوذاني (١/ ٨٤)، قواطع الأدلة للسمعاني (١/ ٣٠)، الموافقات للشاطبي (٤/ ١٤٤)، البحر المحيط للزركشي (٥/ ٢٦٧)، التحبير شرح التحرير للمرداوي (٣/ ١٢٤١).

وإنما كان القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع لأمور منها:

١ – أنه مقطوع به[١] من جهة الثبوت والنقل في الجملة والتفصيل.

٢ – أن الله عز وجل قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤] فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية أشار بأن السنة جاءت مبيِّنة للقرآن، ومن ثم فهي تاليةٌ لما جاءت بياناً له وهو القرآن[٢].

٣ – ولقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[فصلت:٤٢].

٤ – ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل[٣] رضي الله عنه إلى اليمن قال له: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو[٤].

وما أعظم قول ابن مسعود[٥]: "من أراد العلم فليثوِّر[٦] القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين"[٧].

---

(١) انظر: التمهيد في أصول الفقه للكلوذاني (٢/ ١١٤)، الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (٣/ ٣٩٢)، الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٩٤).

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي (٢٩٦/٤)، عجالة الإملاء للقبيباتي (٥/١)، العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٤٠/١).

(٣) معاذ بن جبل بن عمروبن أوس الأنصاري الخزرجي، أبوعبد الرحمن: صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلّى الله عليه وسلم. أسلم وهو فتى، توفي عقيماً بناحية الأردن سنة ١٨هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (١٠٧/٦)، الاستيعاب للقرطبي (١٤٠٢/٣).

(٤) أخرجه: أبوداود في سننه برقم" ٣٥٩٢" (٣/ ٣٠٣). والترمذي في سننه برقم "١٣٢٧" (٣/ ٦٠٨). وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل. وقال الشيخ الألباني: إنه قلّما يخلو منه كتاب من كتب أصول الفقه مع أنه ضعيف الإسناد. انظر: منزلة السنة في الإسلام للألباني ص٢١.

(٥) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبوعبد الرحمن: صحابي أول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سره، وكان قصيراً جداً. توفي سنة ٣٢هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (١٩٨/٤)، الاستيعاب للقرطبي (٩٨٧/٣).

(٦) تثوير القرآن: مناقشته ومدارسته والبحث فيه. انظر: تفسير ابن عطيه (٣/١).

(٧) أخرجه: الطبراني في المعجم الكبير برقم " ٨٦٦٦" (١٣٦/٩)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم " ١٨٠٨" (٣/ ٣٤٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥/٧): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

المطلب الثاني: حجية القرآن الكريم عند الإمامين ابن حزم والشوكاني

المسألة الأولى: حجية القرآن الكريم عند الإمام ابن حزم

في سياق حديث ابن حزم عن حجية القران الكريم؛ ساق عدة أدلة وحجج لإثبات أن القرآن الكريم هو الأصل الأول في التشريع، **ومن هذه الحجج:**

١- التواتر:

يقول الإمام ابن حزم: "ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا، والذي ألزمنا الإقرار به، والعمل بما فيه، وصح بنقل الكافة الذي لا مجال للشك فيه أن هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف، المشهور في الآفاق كلها؛ وجب الانقياد لما فيه، فكان هو الأصل المرجوع إليه؛ لأننا وجدنا فيه قوله تعالى: ﴿مَّافَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] فما في القرآن من أمر أونهى فواجب الوقوف عنده ... ولا خلاف بين أحد من الفرق المنتمية إلى المسلمين – من أهل السنة، والمعتزلة، والخوارج[١]، والمرجئة[٢]، والزيدية – في وجوب الأخذ بما في القرآن"[٣].

ويقول أيضاً: "فإنه لا يمتري كافر ولا مؤمن في أن هذا الذي بين اللوحين من الكتاب هو الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرنا بأنه أوحاه لله تعالى إليه، فمن تعرض هذا فقد أقر بعين عدوه"[٤]. ويعد ابن حزم تواتر القرآن أعلى رتبة في طرق نقل الخبر. وهذا ما لم يتيسر لأي كتاب على وجه الأرض باستثناء القرآن الكريم.

---

(١) فرقة ضالة، كان أول نشأ تهم خروجهم على الإمام علي رضي الله عنه في أعقاب معركة صفّين سنة ٣٧هـ. وهم فرقٌ شتّى، تُجْمِع أصولُهم – على اختلافهم – على تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار، ووجوب الخروج على الحاكم الجائر، ويُسمَّون أيضاً بالحروريَّة والنواصب، وهم الذين يأخذون العشر، وورد في ذمِّهم أحاديث صحيحة. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ص٨٦، الملَل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤)، التعريفات للجرجاني ص١٠٢.

(٢) وهم القائلون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وهم فرق متعددة، وأول من قال بالإرجاء، هو: غيلان ا لدمشقي. والإرجاء: هو تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنة أومن أهل النار. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ص١٣٢، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٣٩)، التعريفات للجرجاني ص٢٠٨.

(٣) انظر: الإحكام لابن حزم (١/ ٩٥-٩٦).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١١٥/٤).

وحجية القرآن الكريم – التي من أوصافها التواتر – تلزم كل مسلم يعترف بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إليه[١]، فهو أم الدلائل، وفيه البيان لجميع الأحكام.

٢- الإعجاز:

الدليل الثاني الذي يعرضه ابن حزم لإثبات حجية القرآن الكريم: دليل الإعجاز، لذا يقول رحمه الله: "وذهب سائر أهل الإسلام إلى أن القرآن كله – قليله وكثيره – معجز، وهذا هو الحق الذي لا يجوز خلافه"[٢].

ويقول رحمه الله: "والحق من هذا هو ما قاله الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء:٨٨]، وإن كل كلمة قائمة المعنى يعلَم إذا تلِيت أنها من القرآن، فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا؛ لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك"[٣].

---

(١) انظر: الإحكام لابن حزم (٩٩/١).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١٣/٣).

(٣) المصدر السابق (١١٣/٣-١١٤). هذه هي نظرية الصِّرفة ، فابن حزم يوافق المعتزلة في هذه المسألة. فهو ينكر أنه معجز لكونه في أعلى درجات البلاغة ويقول: فلو كان إعجاز القرآن لأنه في أعلى درج البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس، ومعاذ الله من هذا.
انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم(١٢/٣) وما بعدها.

المسألة الثانية: حجية القران الكريم عند الإمام الشوكاني

يقرر الإمام الشوكاني أن القرآن الكريم حجة؛ لأنه من عند الله تعالى، فيقول رحمه الله: "ولا أظن مخالفاً في هذا؛ لأن هذه الشريعة المطهرة هي إما من الله عز وجل – وذلك هو القرآن الكريم – أو من رسوله – صلى الله عليه وآله وسلم – وذلك هو السنة المطهرة، ولا ثالث لذلك"(١).

ويذكر الإمام الشوكاني أن القرآن الكريم هو ما تواتر، فيقول مبيناً سبب ذلك: "لأن القرآن مما تتوفر الدواعي على نقله؛ لكونه كلام الرب سبحانه، وكونه مشتملاً على الأحكام الشرعية، وكونه معجزاً، وما كان كذلك فلا بد أن يتواتر، فما لم يتواتر ليس بقرآن"(٢).

وقد اشتمل القرآن الكريم على الحجج والبراهين القاطعة التي تقمع شبهة كل ملحد أومنحرف، في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، أي ما تركنا في القرآن من أمر الدين، إما تفصيلاً أو إجمالاً(٣).

وبهذا يتبين أن الإمامين – ابن حزم والشوكاني – يقولان بحجية القرآن الكريم؛ لكونه كلام الله المتواتر المعجز.

---

(١) الفتح الرباني للشوكاني (٥/٢١٦٩).

(٢) إرشاد الفحول للشوكاني (١/٨٦).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٢/ ١١٤).

المبحث الثالث: في ترتيب سور القرآن الكريم

هل ترتيب سور القرآن الكريم وآياته توقيفي أم اجتهادي؟ هذا ما سأحاول توضيحه في هذا المبحث.

المطلب الأول: تأصيل المسألة

المسألة الأولى: ترتيب الآيات في القرآن الكريم

أجمع المسلمون على أن ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي وليس أمراً اجتهادياً، وقد نقل هذا الإجماع السيوطي، حيث يقول: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد؛ منهم: الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير[١] في مناسباته"[٢].

واستدلوا على ذلك بأدلة، منها:

١- ما رواه البخاري[٣] عن ابن الزبير[٤] رضي الله عنه قال: قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، قال: قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها؟ – أوتدعها؟ – قال: "يا ابن أخي! لا أغير شيئاً منه من مكانه"[٥].

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، المعروف بابن الربيع: محدث مؤرخ. من مصنفاته: (البرهان في ترتيب سور القرآن) ويسمى كتاب المناسبات، (ملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل)، توفي سنة ٧٠٨هـ. انظر: الديباج المذهب لابن فرحون (١/ ١٨٨)، ذيل التقييد للفاسي (١/ ٢٨٩).

(٢) الإتقان للسيوطي (١/ ٢١١).

(٣) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم، صاحب الجامع الصحيح المعروف بـ(صحيح البخاري)، ومن كتبه: (الضعفاء في رجال الحديث)، توفي سنة ٢٥٦هـ. انظر: التقييد لابن نقطة ص٣٠، تاريخ الإسلام للذهبي (١٤٠/٦).

(٤) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبوبكر: فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة. بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، توفي سنة ٧٣هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (٤/ ٧٨)، الاستيعاب للقرطبي (٣/ ٩٠٥).

(٥) أخرجه: البخاري في صحيحه برقم "٤٥٣٠" (٦/ ٢٩).

قال ابن حجر[١]: "وفي جواب عثمان هذا دليل على أن ترتيب الآي توقيفي"[٢].

٢- ما رواه مسلم[٣] عن عمر رضي الله عنه قال: "ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: ((يا عمر! ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟))[٤].

أكتفي بذكر بعض الأدلة، وأشير إلى بعض نقول أهل العلم:

نقل السيوطي عن الباقلاني[٥] قوله: "ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: يقول: "ضعوا آية كذا في موضع كذا"[٦].

ويقول السيوطي: "تدل قراءته لها بمشهد من الصحابة أن ترتيب آياتها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر"[٧].

---

(١) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر: إمام الحفاظ في زمانه، له تصانيف كثيرة، منها: (لسان الميزان)، و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام)، و(التلخيص الحبير)، توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: حسن المحاضرة للسيوطي (٣٦٣/١)، ذيل التقييد للفاسي (١/ ٣٥٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٩٤).

(٣) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسين: حافظ، من أئمة المحدثين. من أشهر كتبه (صحيح مسلم)، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث، توفي سنة ٢٦١هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٣٧/١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٥٧/١٢).

(٤) أخرجه: مسلم في صحيحه برقم "٥٦٧" (١/ ٣٩٦).

(٥) محمد بن الطيب الباقلاني، القاضي أبوبكر، البصري، البغدادي، صاحب التصانيف في علم الكلام، من تصانيفه: (إعجاز القرآن)، و(الإنصاف)، وغيرها، توفي سنة ٤٠٣ هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٣/٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ١٩٠).

(٦) الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٤).

(٧) المصدر السابق (١/ ٢١٤).

المسألة الثانية: ترتيب السور في القرآن الكريم

اختلف العلماء في ترتيب السور – هل هو توقيفي أم اجتهادي – إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي، وهذا قول كثير من أهل العلم منهم: أبو جعفر النحاس[١]، والكرماني[٢]، والطِّيبي[٣] وغيرهم.

القول الثاني: أن ترتيب السور اجتهادي، وقد عزى السيوطي هذا القول إلى جمهور العلماء، ومنهم مالك[٤].

القول الثالث: أن ترتيب السور القرآن توقيفي إلا سورتي براءة والأنفال؛ فإن ترتيبهما اجتهادي، وهذا قول البيهقي[٥] فيما نقله عنه السيوطي، ونقل أيضاً عن ابن عطية[٦].[٧]

ورجح هذا القول السيوطي، فقال: "والذي ينشرح له الصدر: ما ذهب إليه البيهقي؛ وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال"[٨].

---

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبوجعفر النحاس: مفسر، أديب. كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري. زار العراق واجتمع بعلمائه. له مصنفات، منها: (تفسير القرآن)، و(إعراب القرآن)، وغيرها، توفي في ذي الحجة سنة ٣٣٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٠١/١٥)، معجم الأدباء للحموي(٤٦٨/١).

(٢) محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني: عالم بالحديث. تصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة، له مصنفات، منها: (ضمائر القرآن)، و(النقود والردود في الأصول)، مات راجعاً من الحج في طريقه إلى بغداد سنة ٧٨٦هـ. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر(٦/ ٦٦)، بغية الوعاة للسيوطي (٢٧٩/١).

(٣) الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين، الطيبي. من علماء الحديث والتفسير والبيان. من تصانيفه: (التبيان في المعاني والبيان)، و(الخلاصة في أصول الحديث)، و(شرح مشكاة المصابيح)، توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (١٨٥/٢)، شذرات الذهب لابن العماد (٢٣٩/٨).

(٤) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٦).

(٥) أ بوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الخسروجردي، من أئمة الحديث، صنف (السنن الكبرى) وغيرها من كتب الحديث، توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٣/١٨).

(٦) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، أبو محمد: مفسر فقيه، ولي قضاء المرية، وكان يكثر يكثر الغزوات في جيوش الملثمين، له مصنفات، منها: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و٥٤٦هـ. انظر: بغية الملتمس للضبي ص٣٨٩، الديباج المذهب لابن فرحون (٥٨/٢).

(٧) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٨).

(٨) المصدر نفسه (١/ ٢١٩).

المطلب الثاني: منهج الإمامين ابن حزم والشوكاني في ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم

المسألة الأولى: منهج الإمام ابن حزم في ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم

يرى الإمام ابن حزم أن ترتيب الآيات والسور توقيفي من عند الله عز وجل، وليس باجتهاد من أحد، ويقول في هذا المقام عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٧-١٩]: "وهذه الآية تبين ضرورة أن جميع القرآن كما هو – من ترتيب حروفه وكلماته وآياته وسوره حتى جمع كما هو – فإنه من فعل الله عز وجل وتوليه جمعه، أوحى به إلى نبيه عليه السلام، وبيّنه عليه السلام للناس؛ فلا يسع أحداً تقديم مؤخَّر من ذلك ولا تأخير مقدَّم أصلاً"(١).

ويقول أيضاً: "فالكل مأمورون باتّباع قرآنه الذي أنزله الله تعالى عليه وجمعه، فمن أجاز خلاف ذلك فقد أجاز خلاف الله تعالى، وهذه ردة صحيحة لا مرية فيها"(٢).

المسألة الثانية: منهج الإمام الشوكاني في ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم

الذي يظهر من كلام الإمام الشوكاني – من خلال رده على القائلين بعلم المناسبات – أنه يرى أن ترتيب الآيات والسور أمر اجتهادي، حيث يقول رحمه الله: "فأي معنى لطلب المناسب بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة"(٣).

وهذا القول بأن ترتيب الآيات اجتهاد من الصحابة قول شاذ مخالف للإجماع، ولم يأت بدليل على ذلك.

---

(١) الإحكام لابن حزم (١٦٢/٤).

(٢) المصدر نفسه (١٦٢/٤).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٨٦/١).

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح

أ- الموافق والمخالف:

أما ترتيب الآيات فهو مجمع عليه عند الأمة، وقد خالف فيه الإمام الشوكاني فيما يظهر من كلامه.

وأما ترتيب السور فقد ذهب الإمام ابن حزم وكثير من أهل العلم – منهم: أبو جعفر النحاس والكرماني وغيرهم – إلى أن ترتيب السور توقيفي، خلافاً للإمام الشوكاني، وجمهور أهل العلم – كما عزى ذلك السيوطي – إلى أن ترتيب السور أمر اجتهادي.

ب- الأدلة:

أدلة المذهب الأول:

استدل القائلون بأن ترتيب السور توقيفي بأدلة منها:

الدليل الأول: حديث واثلة بن الأسقع[١]، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أُعطيت مكان التوراة السبع، وأُعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضلت بالمفصل))[٢].

الدليل الثاني: حديث أوس بن حذيفة[٣] رضي الله عنه، قال: "كنت في الوفد الذين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم أسلموا من ثقيف ... الحديث، وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((طرأ علي حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه)) قال: فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزّبون القرآن؟ قالوا: نحزّبه ثلاث سور، وخمس

---

(١) واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل، الليثي الكناني: صحابي، من أهل الصُّفّة. وقيل: خدم النبي ثلاث سنين. وشهد فتح دمشق، وعاش ١٠٥ سنين، وقيل: ٩٨ وهو آخر الصحابة موتاً في دمشق، توفي سنة ٨٣هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (٤٦٢/٦)، الاستيعاب للقرطبي (١٥٦٣/٤).

(٢) أخرجه: أحمد في مسنده برقم "١٦٩٨٢" (٢٨/ ١٨٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦/٧): رواه أحمد، وفيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(٣) أوس بن حذيفة بن أوس، الثقفي: أوس بن أبي أوس، صحابي، كان ممن وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف من بني مالك، توفي سنة ٥٩هـ. انظر: إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (٢٨٧/٢)، الاستيعاب للقرطبي (١٢٠/١)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣٠٥/١).

سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم"[١].

الدليل الثالث: سئل ربيعة[٢]: "لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه"[٣].

الدليل الرابع: أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كُتب في عهد عثمان، ولم يخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم، لكنهم لم يتمسكوا بها، بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم، وعدلوا عن مصاحفهم، وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعا[٤].

لذا نجد أبو جعفر النحاس يقول فيما نُقِلَ عنه: "المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥].

وقال الكرماني فيما نُقِلَ عنه: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، على هذا الترتيب، وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه،

---

(١) أخرجه: أحمد في مسنده برقم "١٦١٦٦" (٨٨/٢٦). إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، وعثمان ابن عبد الله بن أوس الثقفي، روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات" (١٨٩/٧)، وقال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٤٢/٣): محله الصدق. وقال القرطبي في "الاستيعاب" (١٢٠/١): وحديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم في تحزيب القرآن حديث ليس بالقائم.

(٢) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي، مولى آل المنكدر، أبو عثمان، ويقال: أبوعبد الرحمن، المعروف بربيعة الرأي. أحد التابعين، شيخ الإمام مالك وأحد أئمة الإسلام، توفي ١٣٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٩/٦)، المختلطين للعلائي ص٣٢، إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (٣٥٣/٤).

(٣) أخرجه: القرطبي في جامع بيان العلم وفضله برقم "١٨١٢" (٩٤٩/٢)، وابن شبة في تاريخ المدينة (١٠١٦/٣).

(٤) مناهل العرفان للزرقاني (٣٥٤/١).

(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٥٨/١)، أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص٤٤، الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٨)، مناهل العرفان للزرقاني (٣٥٥/١).

وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين وكان آخر الآيات نزولاً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[البقرة:٢٨١]، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين[١].

أدلة المذهب الثاني:

بينما استدل القائلون بأن ترتيب السور اجتهادي بجملة من الأدلة نذكر منها:

الدليل الأول: حديث ابن عباس[٢] رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين؛ فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السبع الطوال؟

فقال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ((ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا))، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها؛ فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال[٣].

الدليل الثاني: ما روي عن علي رضي الله عنه أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله، ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١][٤].

---

(١) الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٧).

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الأمة، الصحابي الجليل، لازم رسول الله صلّى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكُف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها سنة ٦٨هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (١٢١/٤)، أسد الغابة لابن الأثير (٢٩١/٣).

(٣) أخرجه: الترمذي في سننه برقم "٣٠٨٦" (١٢٣/٥)، وأحمد في مسنده برقم "٣٩٩" (٤٥٩/١)، والبزار في مسنده برقم "٣٤٤" (٨/٢)، والحاكم في المستدرك برقم "٢٨٧٥" (٢٤١/٢). قال الحاكم عقب الحديث: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال المزي في " تحفة الأشراف" (٢٦١/٧): حسن، لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي. وضعفه الألباني. انظر: ضعيف سنن الترمذي للألباني (ص: ٣٨١). وقال عنه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف ومتنه منكر، يزيد الفارسي هذا لم يرو عنه هذا الحديث غير عوف بن أبي جميلة، وهو في عداد المجهولين، وقد انفرد بروايته. انظر: مسند أحمد تحقيق الأرنؤوط (١/ ٤٦٠).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤٨/١).

الدليل الثالث: اختلاف مصاحف الصحابة في الترتيب. فقد كان أَوَّلَ مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤]، ثُمَّ الْبَقَرَة، ثُمَّ النساء على ترتيب مُخْتَلِف،

وأَوَّلَ مُصْحَفِ أُبَيٍّ[١]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] ثُمَّ النِّسَاء، ثُمَّ آلُ عِمْرَان، ثُمَّ الْأَنْعام، ثُمَّ الْمَائِدَة، ثُمَّ كَذَا عَلَى اخْتِلَافٍ شَدِيد[٢]. لذا يقول ابن فارس[٣] فيما نُقِلَ عنه: "جمع القرآن على ضربين:

- أحدهما: تأليف السور – كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين – فهذا هو الذي تولته، الصحابة.
- وأما الجمع الآخر – وهو جمع الآيات في السور – فهو توقيفي تولاه النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه[٤].

والذي يظهر للباحث من خلال عرض الأدلة: أن القائلين بأن ترتيب الآيات والسور توقيفي هو الراجح؛ نظراً لقوة الأدلة لديهم وصحتها، بخلاف القائلين بأن ترتيبها اجتهاد من الصحابة، ويمكن مناقشة أدلتهم على النحو التالي:

- بالنسبة لحديث ابن عباس فهو حديث ضعيف لا يحتج به، وقد سبق تخريجه.
- أما بالنسبة لاختلاف مصاحف الصحابة فيجاب عنه: بأنه كان اختياراً منهم قبل أن يجمع القرآن مرتباً، فلما جمع في عهد عثمان تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها. والله تعالى أعلم.

ت- منشأ الخلاف

هل ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم توقيفي أم اجتهادي؟

---

(١) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبوالمنذر: صحابي أنصاري.كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، ولما أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم، مات بالمدينة سنة ٢١هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (١٨٠/١)، الاستيعاب للقرطبي (٦٥/١).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٤٨/١).

(٣) أحمد بن فارس بن زكريا، القزويني، الرازي، المالكي، اللغوي، أبو الحسين، من آثاره: (مقاييس اللغة)، و(اختلاف النحاة)، توفي في الري سنة ٣٩٥هـ.انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ١٠٣)، إنباه الرواة للقفطي (١٢٧/١).

(٤) الإتقان للسيوطي (١/ ٢١٦)، مناهل العرفان للزرقاني (٣٥٣/١).

ث- الأثر الفقهي

الخلاف في هذه المسألة ترتب عليه بعض المسائل الفقهية، أذكر مثالاً على ذلك:

حكم قراءة سورةٍ من القرآن على سورة متقدمة عليها في الترتيب[١].

فذهب بعض أحمد[٢] وأبو حنيفة ومالك[٣] إلى كراهة قراءة سورة قبل سورة تخالف ترتيب المصحف، وكان مالك يعيبه ويقول: هذا عظيم[٤]! وسماه بعضهم تنكيساً للقرآن؛ بناء على مخالفته لترتيب القرآن الكريم، وقد اشتهر عن بعض السلف – وهما عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر[٥] – أنهما كرها أن يقرأ القران منكوساً، فروي أن عبد الله بن مسعود سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً فقال: "ذاك منكوس القلب"[٦]. وأن عبد الله بن عمر ذُكر له أن رجلاً يقرأ القرآن منكوساً فقال: "لو رآه السلطان لأدّبه"[٧]. خلافاً للقائلين بجواز ذلك[٨].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢/٢٥٧)، الانتصار للقرآن للباقلاني (١/٢٨٠)، الموسوعة القرآنية المتخصصة ص٤٣٢، معجم علوم القرآن (١/١٠٦).

(٢) انظر: مواهب الجليل للرعيني (١/٥٣٧).

(٣) انظر: الإقناع في فقه الإمام أحمد لأبي النجا (١/١١٩)، كشف القناع للبهوتي (١/٣٤٤).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٩٩.

(٥) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبوعبد الرحمن: صحابي، من أعز بيوت قريش في الجاهلية. كان جريئاً جهيراً. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة. ومولده ووفاته فيها، توفي سنة ٧٣هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (٥/١٥٠)، الاستيعاب للقرطبي (٣/٩٥٠).

(٦) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (١/١١٩).

(٧) الانتصار للقرآن للباقلاني (١/٢٨٥).

(٨) انظر: المجموع للنووي (٢/١٦٥)، (٣/٣٨٥).

المبحث الرابع: الحروف السبعة

مسألة الحروف السبعة مسألة مهمة، وهي مسألة شائكة تكلّم فيها كثير من أهل العلم، وخاضوا فيها خوضاً شديداً، وقد تكلم فيها الإمامان ابن حزم والشوكاني رحمة الله عليهما.

المطلب الأول: تأصيل المسألة

آراء العلماء في المراد بالحروف السبعة[١]:

١- أنه من المشكل الذي لا يدرى معناه؛ لأن الحرف يصدق لغة على: حرف الهجاء، وعلى الكلمة، وعلى المعنى، وعلى الجهة. قاله ابن سعدان[٢] النحوي.

٢- أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التيسير والتسهيل والسعة، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد العدد المعين.

٣- أن المراد بها سبع قراءات، وتُعقّب بأنه لا يوجد في القرآن كلمة تُقرأ على سبعة أوجه إلا القليل، مثل: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[المائدة:٦٠]، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[الإسراء:٢٣].

٤- أن المراد: أن كل كلمة تقرأ بوجه أووجهين أوثلاثة أو أكثر إلى سبعة، ويشكل على هذا: أن في الكلمات ما قُرئ على أكثر، وهذا يصلح أن يكون قولاً رابعاً.

٥- أن المراد بها: الأوجه التي يقع فيها التغاير. ذكره ابن قتيبة[٣]، قال:

- فأولها: ما يتغير حركته ولا يزول معناه وصورته مثل: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ ﴾[البقرة:٢٨٢] بالفتح والرفع.
- وثانيها: ما يتغير بالفعل مثل: ﴿بَٰعِدَ ﴾[سبأ:١٩] بلفظ الماضي والطلب.

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي ١/١٦٤-١٦٧.

(٢) محمد بن سعدان أبو جعفر النحوي الضرير، كان أحد القراء، وله كتاب مصنف في النحو، وكتاب كبير في القراءات، توفي سنة ٢٣١هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٩١٦/٥)، إنباه الرواة للقفطي (١٤٠/٣).

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الدينوري، أبو محمد، من أئمة الأدب ومن المصنفين الذين بعد صيتهم، ولد ببغداد وسكن الكوفة، وتوفي ببغداد سنة ٢٠٦هـ، من آثاره: (المعارف)، (عيون الأخبار)، (المشبه في الحديث والقرآن)، و(المسائل والأجوبة). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٦/١٣)، لسان الميزان لابن حجر (٨/٥).

- وثالثها: ما يتغير بالنقط مثل: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، و{ننشرها}.
- ورابعها: ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل: ﴿وَطَلۡحٖ﴾ [الواقعة:٢٩]، و{طلع}.
- وخامسها: ما يتغير بالتقديم والتأخير ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق:١٩]، و"سكرة الحق بالموت".
- وسادسها: ما يتغير بزيادة أونقصان مثل: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]، و"الذكر والأنثى".
- وسابعها: ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، و"كالصوف المنفوش". وتعقّب هذا قاسم بن ثابت[١] بأن الرخصة وقعت وأكثرهم يومئذ لا يكتب ولا يعرف الرسم، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها. **وأجيب:** بأنه لا يلزم من ذلك توهين ما قاله ابن قتيبة؛ لاحتمال أن يكون الانحصار المذكور في ذلك وقع اتفاقاً، وإنما اطلع عليه بالاستقراء.

٦- قال أبو الفضل الرازي[٢] في اللوامح: الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف: الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر.

الثالث: وجوه الإعراب.

الرابع: النقص والزيادة.

الخامس: التقديم والتأخير.

السادس: الإبدال.

---

(١) قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي، أبومحمد: عالم بالحديث واللغة. من مصنفاته: (الدلائل على معاني الحديث بالشاهد والمثل)، توفي سنة ٣٠٢هـ. انظر: بغية الملتمس للضبي (٢٥٤/١)، الديباج المذهب لابن فرحون (١٤٧/٢).

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار العجلي الرازي، أبو الفضل: مقرئ فاضل عارف بالأدب، له تصانيف منها: (جامع الوقوف)، توفي سنة ٤٥٤هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤٨/١٠)، المنتخب للصريفيني ص٣٣٧.

السابع: اختلاف اللغات كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإدغام والإظهار ونحو ذلك.

٧- أن المراد بها كيفية النطق بالتلاوة - من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق -.

٨- قال ابن الجزري[١]: قد تتبعت صحيح القراءة وشاذها، وضعيفها ومنكرها؛ فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها، وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى نحو: ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧] بأربعة، ويحسب بوجهين، أو متغير في المعنى فقط نحو: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧]، وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو: ﴿تَبْلُوا۟﴾ [يونس:٣٠] و: { تتلو}، أو عكس ذلك نحو: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة:٦] و: "السراط"، أو بتغيرهما نحو: ﴿وَٱمْضُوا۟﴾ [الحجر:٦٥] و" واسعوا "، وإما في التقديم والتأخير نحو: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١]، أو في الزيادة والنقصان نحو: ﴿وَصَّىٰ﴾ [الشورى:١٣] و" أوصى " فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها قال: وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتحقيق والتسهيل والنقل والإبدال؛ فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ أوالمعنى؛ لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحداً.

وأكتفي بذكر هذه الأقوال من جملة أقوال العلماء الكثيرة والطويلة في هذا الباب.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن علي، أبو الخير، الشافعي، الشهير بابن الجزري: شيخ الإقراء في زمانه. من حفاظ الحديث، له مصنفات كثيرة، منها: (النشر في القراءات العشر)، و(غاية النهاية في طبقات القراء)، توفي سنة٨٣٣هـ. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي ص٥٤٩، الأنس الجليل للعليمي (١٠٩/٢).

المطلب الثاني: منهج الإمامين ابن حزم والشوكاني في الأحرف السبعة

المسألة الأولى: منهج الإمام ابن حزم في الأحرف السبعة

يرى الإمام ابن حزم رحمه الله أن المراد بالأحرف السبعة: اختلاف ألفاظ القراءات، وفي هذا يقول: "لأن خبر أُبي الذي ذكرنا[١]، وخبر عمر الذي أوردناه[٢] شاهدان بكذبه، مخبران بأن الأحرف إنما هي: اختلاف ألفاظ القراءات"[٣].

وقد ناقش ابن حزم آراء غيره من أهل العلم في المراد بالأحرف السبعة كالتالي:

قال رحمه الله: "وقد قال بعض من خالفنا في هذا: إن الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عرباً يصعب على كل طائفة منهم القراءة بلغة غيرهم؛ فلذلك فسح لهم في القراءة على أحرف شتى من بعدهم كذلك، فقلنا: كذب هؤلاء مرتين:

- إحداهما: على الله تعالى.
- والثانية: على جميع الناس كذباً مفضوحاً جهاراً لا يخفى على أحد.

أما كذبهم على الله عز وجل فإخبارهم بأنه تعالى إنما جعله يقرأ على أحرف شتى لأجل صعوبة انتقال القبيلة إلى لغة غيرها، فمن أخبرهم بها عن الله تعالى أنه من أجل ذلك حكم بما صح أنه

---

(١) يقصد حديث أُبي الذي أخرجه مسلم برقم "٨٢١" (٥٦٢/١): أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار، قال: فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: ((أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك))، ثم أتاه الثانية، فقال: ((إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين))، فقال: ((أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك))، ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: ((أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك))، ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه برقم " ٤٩٩٢ " (١٨٤/٦) وفيه: أن المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن عبد القاري، حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب، يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام، يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذاهو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه)).

(٣) انظر: الإحكام لابن حزم (١٦٩/٤).

تعالى حكم به؟! وهل يستجيز مثل هذا ذو دين أومسكة عقل؟! وهل يعلم مراد الله تعالى في ذلك إلا بخبر وارد من عنده عز وجل! اللهم عياذك من مثل هذا الترامي من حالقٍ[١] إلى المهالك!

ومن أخبر عن مراد غيره بغير أن يطلعه ذلك المخبر عنه على ما في نفسه فهو كاذب بلا شك، والكذب على الله تعالى أشد من الكذب على خلقه.

وأما كذبهم على الناس فبالمشاهدة يدري كلُّ أحد صعوبة القراءة على الأعجمي المسلم... وسائر قبائل العجم بلغة العرب التي بها نزل القرآن أشد مراماً من صعوبة قراءة اليماني على لغة المضري، والربعي على لغة القرشي بلا شك، وأن تعلم العربي للغة قبيلة من العرب غير قبيلته أمكن وأسهل من تعلم الأعجمي للعربية بلا شك، والأمر الآن أشد مما كان حينئذ أضعافاً مضاعفة، فالحاجة إلى بقاء الأحرف الآن أشد منها حينئذ على قول المستسهلين للكذب في عللهم التي يستخرجونها نصرا لضلالهم، ولتقليدهم من غلط قاصد إلى خلاف الحق، ولأتباعهم وله عالم قد حدروا عنها، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق"[٢].

ويقوم الإمام ابن حزم بسرد البراهين المبطلة لقولهم، فيقول: "وبرهان كذبهم في دعواهم المذكورة: أنه لو كان ما قالوه حقاً لم يكن لاقتضاء نزوله على سبعة أحرف معنى، بل كان الحكم أن تطلق كل قبيلة على لغتها"[٣].

ويستمر الإمام ابن حزم في سرد الردود عليهم فيقول: "وبرهان آخر على كذبهم في ذلك أيضاً: أن المختلفين في الخبر المذكور الذي أوردناه آنفاً أنهما قرآ سورة الفرقان بحرفين مختلفين كانا جميعا بني عم قرشيين من قريش البطاح، من قبيلة واحدة، جاران ساكنان في مدينة واحدة وهي مكة، لغتهما واحدة، وهما: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قريظ بن

---

(١) الحالق هنا:هو الجبل العالي. انظر: تهذيب اللغة للهروي (٤١/٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (١٦٨/٤).

(٣) المصدر السابق (١٦٨/٤).

رزاح بن عدي بن كعب، وهشام بن حكيم[١] بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن كلاب بن مرة بن كعب، ويجتمعان جميعا في كعب بن لؤي، بين كل واحد منهما وبين كعب بن لؤي ثمانية آباء فقط؛ فظهر كذب من ادّعى أن اختلاف الأحرف إنما كان لاختلاف لغات قبائل العرب، وأبى ربك إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل، ويظهر كذب الكاذب، ونعوذ بالله العظيم من الضلال والعصبية للخطأ"[٢].

ويناقش الإمام ابن حزم أيضاً القائلين بأن الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها إنما هي وعد ووعيد وحكم، حتى بلغوا سبعة معان، فيرد عليهم الإمام ابن حزم بقوله:

"وكذب هذا القول أظهر من الشمس؛ لأن خبر أُبي الذي ذكرنا وخبر عمر الذي أوردناه شاهدان بكذبه، مخبران بأن الأحرف إنما هي اختلاف ألفاظ القراءات، لا تغير القرآن، ولا يجوز أن يقال في هذه الأقسام التي ذكرنا: أيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا!

وأيضاً فإنهم ليسوا في تقسيمهم هذا بأولى من آخر اقتصر على مبادئ الكلام الأول، فجعل القرآن ثلاثة أقسام فقط: خبراً، وتقديراً، وأمراً بشرع، وجعل الوعد والوعيد تحت قسم الخبر.

ولا هم أيضاً بأولى من آخر قسّم الأنواع التي في أشخاص المعاني فجعل القرآن أقساماً كثيرة، أكثر من عشرة فقال: فرض، وندب، ومباح، ومكروه، وحرام، ووعد، ووعيد، والخبر عن الأمم السالفة، وخبر عما يأتي من القيامة والحساب، وذكر الله تعالى وأسمائه، وذكر النبوة ونحو هذا، فظهر فساد هذا.

وأيضا فإن هذه الأقسام التي ذكروا هي في قراءة عمر رضي الله عنه كما هي في قراءة هشام بن حكيم، ولا فرق، فهذا بيان زائد في كذب هذا التقسيم"[٣].

---

(١) هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي: صحابي ابن صحابي. أسلم يوم فتح مكة ومات قبل أبيه، ودخل الشام في أيام الفتوح، توفي سنة ١٥هـ. انظر: الإصابة لابن حجر (٤٢٢/٦)، الاستيعاب للقرطبي (١٥٣٨/٤)، أسد الغابة لابن الأثير (٣٧٢/٥).

(٢) الإحكام لابن حزم ١٦٩/٤.

(٣) المصدر نفسه (١٦٩/٤).

ويرد الإمام ابن حزم كذلك على من استدل بالرواية الثابتة بقراءات صححت عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، مثل ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الحق بالموت﴾ [ق:١٩]، ومثل ما صح عن عمر رضي الله عنه من قراءة ﴿صِرَطَ من أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وغَيْرِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، ومن أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يعد المعوذتين من القرآن، وأن أُبياً رضي الله عنه كان يعد القنوت من القرآن ونحو هذا، فيرد عليهم ابن حزم، فيقول: "قلنا كل ذلك موقوف على من روي عنه شيء ليس منه عن النبي صلى الله عليه وسلم البتة، ونحن لا ننكر على من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطأ، فقد هتفنا به هتفا، ولا حجة فيما روي عن أحد دونه عليه السلام، ولم يكلفنا الله تعالى الطاعة له، ولا أمرنا بالعمل به، ولا تكفل بحفظه، فالخطأ فيه واقع فيما يكون من الصاحب فمن دونه ممن روى عن الصاحب والتابع، ولا معارضة لنا بشيء من ذلك، وبالله تعالى التوفيق"(١).

المسألة الثانية: منهج الإمام الشوكاني في الأحرف السبعة

رجح الإمام الشوكاني أن المراد بالأحرف السبعة هي لغات العرب فقال: "والمراد بالأحرف السبعة: لغات العرب؛ فإنها بلغت إلى سبع لغات، اختلفت في قليل من الألفاظ، واتفقت في غالبها، فما وافق لغة من تلك اللغات، فقد وافق المعنى العربي والإعرابي"(٢).

(١) المصدر السابق (١٧٠/٤).

(٢) إرشاد الفحول للشوكاني (٨٨/١).

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح

أ- الموافق والمخالف

اختار الإمام ابن حزم أن المراد بالأحرف السبعة هو اختلاف ألفاظ القراءات، وهو يوافق رأي ابن قتيبة، لكنه مجمل، أما رأي ابن قتيبة فهو مفصل.

واختار الإمام الشوكاني أن المراد بالأحرف السبعة هو لغات العرب، وإلى هذا ذهب أبو عبيد(١) وآخرون(٢).

ب- الأدلة

من خلال النظر في اختيارات الإمامين يتضح للباحث أن القول أن المراد بالأحرف السبعة هي: لغات العرب فيه نظر؛ لأن أصحاب هذا القول أنفسهم اختلفوا في تحديد تلك اللغات، فذهب كل فريق مذهباً. وأيضاً الحديث الذي فيه ذكر اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم – وهما قرشيان –يؤكد ضعف هذا المذهب.

والذي ذهب إليه الإمام ابن حزم – وإن كان مجملاً – هو الأقرب للصواب. والله تعالى أعلم.

ت- منشأ الخلاف:

ما المراد بالأحرف السبعة؟

ث- الأثر الفقهي

يمكن الاستنباط والقول: إننا إذا قلنا بأن المراد بالأحرف السبعة لغات العرب؛ فمعنى ذلك أن القراءات السبع جاءت على حرف واحد من هذه الأحرف السبعة، وينبني عليه أثر فقهي، وهو: عدم جواز قراءة القرآن بغير لغة قريش.

أما إذا قلنا بأن المراد بالأحرف السبعة اختلاف ألفاظ القراءات؛ فمعنى ذلك أن القراءات السبعة هي الأحرف السبعة.

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام الخراساني الأنصاري، صاحب التصانيف الكثيرة في القراءات والحديث والفقه واللغة والشعر، من مصنفاته: (الأمثال)، و(الأموال)، وغيرها، توفي سنة ٢٢٤هـ. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٥٣/٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٩٠/١٠).

(٢) كثعلب والأزهري، واختاره ابن عطية، وصححه البيهقي في الشعب. انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٥٣٥/٣)، الإتقان للسيوطي ١٦٩/١.

المبحث الخامس: المعرب في القرآن الكريم

أجمع العلماء على أنه ليس في القرآن (كلام مركب من ألفاظ أعجمية) يعطي معنى من هذا التركيب.

وأجمعوا على أن في القرآن (أسماء أعلام أعجمية) مثل: نوح، ولوط، وإسرائيل، وجبريل.

قال القرطبي[١] في مقدمة تفسيره":لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن في القرآن أسماء أعلاما لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط، واختلفوا: هل فيه ألفاظ أعجمية مفردة؟"[٢].

المطلب الأول: تأصيل المسألة

المسألة الأولى: تعريف المعرَّب

هو ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها[٣].

قال الجوهري[٤]: "تعريب الاسم الأعجمي: أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول: عربته العرب وأعربته أيضاً"[٥].

والتعريب: هو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية.

المسألة الثانية: آراء العلماء، وموقفهم من المعرَّب في القرآن الكريم

تباينت آراء العلماء في هذه المسألة، مابين مانع من ذلك، وقائل بالوقوع، ومتوسط بينهما.

الرأي الأول: عدم وقوع المعرَّب في القرآن الكريم. ونسب هذا القول إلى عامة الفقهاء والمتكلمين[٦]،

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبوعبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. له مصنفات، منها: (الجامع لأحكام القرآن)، و(التذكار في أفضل الأذكار)، وغيرها، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٢٩/١٥)، الديباج المذهب لابن فرحون (٣٠٨/٢).

(٢) تفسير القرطبي (٦٨/١).

(٣) المزهر في علوم اللغة للسيوطي (٢١١/١).

(٤) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر: أول من حاول الطيران ومات في سبيله. لغوي، من الأئمة، أصله من فاراب، وكان يُضرب به المَثَل في حفْظ اللغة، وحُسْن الكتابة، من أشهر كتبه (الصحاح)، وله كتاب في العروض، توفي سنة ٣٩٣هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧٢٤/٨)، معجم الأدباء للحموي (٦٥٦/٢).

(٥) الصحاح للجوهري (١٧٩/١).

(٦) انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٧٠٧/٣).

وذهب إلى ذلك: الإمام الشافعي، وابن جرير[١]، والقاضي أبو بكر، وابن فارس، وغيرهم[٢].

الرأي الثاني: وقوع المعرَّب في القرآن الكريم. وعرف هذا الرأي برأي الفقهاء، ومنهم: ابن عباس وغيره[٣].

الرأي الثالث: الجمع بين الرأيين السابقين. وصاحب هذا الرأي هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم، ومال إليه أبو منصور الجواليقي[٤]، وابن الجوزي[٥]، وآخرون[٦].

وفي الحقيقة فرأي أبي عبيد يتفق مع أصحاب الرأي الثاني – القائل بوقوع المعرب في القرآن الكريم – فهو يقرر أن هذه الأحرف أصولها أعجمية، لكنها عربت وحولت إلى العربية، وهذا ما نفاه مطلقاً أصحاب الرأي الأول، فالمسألة تدور بين المنع والجواز[٧].

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل يزيد بن كثير ابن غالب، صاحب التفسير الكبير(جامع البيان)، والتاريخ الشهير(تاريخ الرسل)، كان إماماً في فنون كثيرة، توفي سنة ٣١٠هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٩٢/٤)، طبقات الشافعيين لابن كثير ص٢٢٢.

(٢) انظر: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي ص٥٧، شرح مختصر الروضة للطوفي (٣٢/٢)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٤٢٦/١).

(٣) العدة في أصول الفقه لأبي يعلى(٧٠٧/٣)، روضة الناظر لابن قدامة (٢١٢/١)، شرح مختصر الروضة للطوفي (٣٢/٢)، المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي ص٦٥.

(٤) أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن محمد بن الخضر، الجواليقي البغدادي الأديب اللغوي؛ كان إماماً في فنون الأدب، له مصنفات، منها: (المعرب)، و(شرح أدب الكاتب)، توفي سنة ٥٤٠هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧٣٥/١١)، إنباه الرواة للقفطي (٣٣٥/٣).

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. من مصنفاته: (تلقيح فهم أهل الآثار)، و(الأذكياء وأخبارهم)، و(روح الأرواح)، توفي سنة ٥٩٧هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١١٠٠/١٢)، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٠/٣).

(٦) انظر: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي ص٦٥، معترك الأقران للسيوطي (١٥٠/١).

(٧) انظر: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي ص٦٥، الإتقان للسيوطي (١٢٧/٢)، فصول في فقه فقه العربية لرمضان عبد التواب (ص: ٣٥٨-٣٦٨).

المطلب الثاني: منهج الإمامين ابن حزم والشوكاني في المعرب في القرآن الكريم

المسألة الأولى: منهج الإمام ابن حزم في المعرب في القرآن الكريم

لم أجد – حسب بحثي – لابن حزم كلاماً حول هذا الموضوع.

المسألة الثانية: منهج الإمام الشوكاني في المعرب في القرآن الكريم

عرف الإمام الشوكاني المعرب بقوله: "ما كان موضوعاً لمعنى عند غير العرب، ثم استعملته العرب في ذلك المعنى"(١).

وقد ذهب الإمام الشوكاني إلى مذهب من قال بوقوع المعرب في القرآن الكريم، بل أنكر أشد الإنكار على من أنكر وقوعه، فقال: "وفي القرآن من اللغات الرومية، والهندية، والفارسية، والسريانية، ما لا يجحده جاحد، ولا يخالف فيه مخالف، حتى قال بعض السلف: إن في القرآن من كل لغة من اللغات!"(٢).

وقد ناقش الإمام الشوكاني القائلين بالمنع، وتعجب ممن نفاه فقال: "ولم يتمسكوا بشيء سوى تجويز أن يكون ما وجد في القرآن من المعرب مما اتفق فيه اللغتان – العربية والعجمية – وما أبعد هذا التجويز، ولوكان يقوم بمثله الحجة في مواطن الخلاف لقال من شاء ما شاء بمجرد التجويز"(٣). التجويز"(٣).

وقال أيضاً: "وتطرق المبطلون إلى دفع الأدلة الصحيحة بمجرد الاحتمالات البعيدة، واللازم باطل بالإجماع؛ فالملزوم مثله، وقد أجمع أهل العربية على أن العجمة علة من العلل المانعة للصرف في كثير من الأسماء الموجودة في القرآن، فلو كان لذلك التجويز البعيد تأثير لما وقع منهم هذا الإجماع"(٤).

وبيَّن الإمام الشوكاني أن وقوع بعض الكلمات الغير عربية في القرآن لا تلزم كون القرآن غير عربي؛ لأنها قليلة جداً، والاعتبار بالأغلب، فإن الثور الأسود لا يمنع إطلاق اسم الأسود عليه بوجود شعرات بيض في جلده (٥).

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني (٩١/١).
(٢) المصدر نفسه (٩١/١).
(٣) المصدر السابق (٩١/١).
(٤) إرشاد الفحول للشوكاني(٦٥/١).
(٥) انظر: المصدر نفسه (٦٥/١).

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح

أ- الموافق والمخالف

ذهب ابن عباس وعكرمة وغيرهما إلى القول بوقوع المعرب في القرآن الكريم، وهو اختيار أبي عبيد بن القاسم، والإمام الشوكاني. خلافاً للإمام الشافعي، وابن جرير، والقاضي أبو بكر، وابن فارس، وغيرهم من القائلين بعدم وقوع المعرب في القرآن الكريم.

ب- الأدلة:

أدلة الرأي الأول:

استدل القائلون بعدم وقوع المعرب في القرآن الكريم بجملة أدلة منها:

١- أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تقطع بأنه عربي[١]، والقول بأن فيه من لغات العجم ينافي ذلك، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ [الرعد:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل:١٠٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ [فصلت:٤٤]. وجه الدلالة: أن الله تعالى صرح بأنه لا يوجد في القرآن لفظ بغير العربية[٢].

٣- أن الله تعالى تحدّى العرب بالإتيان بمثل هذا القرآن، وبمثل سورة منه، فلولا أن القرآن كله عربي لما صح أن يتحداهم بأن يأتوا بما ليس في لسانهم ولا يحسنونه، فثبت أنه كله عربي لا شيء سواه[٣].

لذا نقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنّى[٤] أنّه قال: "من زعم أنَّ في القرآن لساناً سوى العربيَّة فقد أعظم على الله القول"[١]، وقال الشافعي: "وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه

---

(١) انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٧٠٨/٣).

(٢) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي ص٦٠، روضة الناظر لابن قدامة (٢١٠/١).

(٣) انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٧٠٨/٣).

(٤) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبوعبيد النحوي: من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة، وكان إباضياً، شعوبياً، من حفاظ الحديث، له مصنفات، منها: (مجاز القرآن)، و(طبقات الفرسان)، وغيرها، توفي سنة ٢٠٩هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢١٠/٥)، إنباه الرواة للقفطي (٢٧٦/٣).

منه لكان الإمساكُ أولى به، وأقرب من السلامة له إن شاء الله، فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجميا، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب"[٢]، وقَالَ ابنُ فَارِسٍ فِي (فقْه اللُغَة) فيما نُقِلَ عنه: "وهو قَوْلُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّة"[٣].

أَما الأَلفاظ التيَ قيل: إنها معربة؛ فهيَ ألفاظَ عربية اتفق استعمال العرب لها مع غيرهم، فهذا من توارد اللغات، فقد تتفق أمَّتان أو أكثر في استعمال كلمة واحدة لمعنى واحد أومختلف. كذلك فإن اللغة العربية لا يحيط بها إلا نبي[٤]؛ فيحتمل أن تكون معاني هذه الكلمات قد خفيت على بعضهم؛ فظن أنها غير عربية الأصل.

أدلة الرأي الثاني:

بينما استدل القائلون بوقوع المعرب في القرآن الكريم بأدلة، منها:

١- أن هذه الألفاظ القليلة بغير العربية لا تَخرج القرآن عن كونه عربيا، فالقصيدة الفارسية لا تخرج عن فارسيتها بلفظة عربية توجد فيها.

٢- أن هذه الكلمات عرِّبت، وجرت عليها قوانين العربية، وطوَّعتها العربيةُ لمنهجها في أصواتها وبنيتها؛ فصارت ضمن مفرداتها التي يستخدمها العرب، وذلك قبل نزول القرآن بسنوات طويلة.

٣- وقوع الأعلام الأعجمية في القرآن الكريم باتفاق؛ فلا مانع من وقوع غيرها من الأجناس.

٤- أن معنى الآية الكريمة في سورة فصلت: "أكلام أعجميٌّ ومخاطَبٌ عربيٌّ؟!".

٥- أن القرآن الكريم حوى علوم الأولين والآخرين؛ فلابد من وقوع الإشارة فيه إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء؛ فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا، وإن كان أصله بلغة العرب.

---

(١) البحر المحيط للزركشي (٣/٣٠).

(٢) الرسالة للشافعي ص٤١.

(٣) البحر المحيط للزركشي (٣/٣٠).

(٤) انظر: الرسالة للشافعي ص٣٤. حيث يقول:" ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه".

٦- أن الألفاظ المعرَّبة لا تقل في فصاحتها وبلاغتها عن الألفاظ العربية أصالة، فكلمة (إستبرق) معناها: ما غلُظ من الحرير، ولو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا[١].

والذي **يرجحه** الباحث من خلال ما سبق من الأقوال والأدلة هو:

ما ذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام: أن هذه الألفاظ التي أصولها أعجمية، قد استعملتها العرب، فعربت بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فهي عربية بهذا الوجه. والله تعالى أعلم.

ت- منشأ الخلاف:

هل يوجد في القرآن الكريم ألفاظ أعجمية؟

ث- الأثر الفقهي

الخلاف في هذه المسألة لفظي؛ لأن كل فريق نظر إلى اعتبار.

فأصحاب المذهب الأول – وهم القائلون: لا يوجد في القرآن لفظ بغير العربية – نظروا إلى ما يستعمله العرب من الألفاظ المشتهر بينهم، سواء كانت ألفاظاً عربية محضة، أوكانت ألفاظاً معربة بالاستعمال.

أما أصحاب المذهب الثاني – وهم القائلون: يوجد في القرآن ألفاظ بغير العربية – فإنهم نظروا إلى أصول الألفاظ المعربة بالاستعمال.

وأيضاً لاتفاق أصحاب المذهبين على استواء أخذ الأحكام من ألفاظ القرآن الكريم، سواء كانت ألفاظاً عربية ابتداء، أوكانت ألفاظًا معربة بالاستعمال[٢].

---

(١) انظر: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي (ص: ٥٩-٦٥)، العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٧٠٨/٣-٧١٠).

(٢) انظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن لعبد الكريم النملة (٥٠١/٢).

المبحث السادس: المتشابه في القرآن الكريم

المطلب الأول: تأصيل المسألة

المسألة الأولى: تعريف المتشابه لغة

المتشابه في اللغة: مأخوذ من المشابهة، وهي: المشاركة في معنى من المعاني(١).

ويقول صاحب مختار الصحاح: "والمتشابهات: المتماثلات"(٢).

ويقول ابن قتيبة: "وأصل التشابه أن يشبه اللفظ في الظاهر، والمعنيان مختلفان"(٣).

ويقول الراغب(٤): "والْمُتَشَابِهُ من القرآن: ما أشكل تفسيره؛ لمشابهته بغيره، إما من حيث اللّفظ، أومن حيث المعنى"(٥).

المسألة الثانية: تعريف المتشابه اصطلاحاً:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف المتشابه، منها أنه:

١- ما استأثر الله بعلمه، من إخراج الدابة من الأرض، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام(٦).

٢- مَا احْتَمَلَ أَوْجُهًا(٧).

٣- ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره(٨).

---

(١) انظر: المصباح المنير للحموي (٣٠٣/١).

(٢) مختار الصحاح للرازي ص١٦١.

(٣) تأويل مشكل القران لابن قتيبة ص٦٨.

(٤) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من كتبه: (محاضرات الأدباء)، و(جامع التفاسير)، و(المفردات في غريب القرآن)، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: معجم الأدباء للحموي (١١٥٦/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/١٨).

(٥) المفردات للراغب الأصفهاني ص٤٤٣.

(٦) انظر: غرائب التفسير للكرماني (٢٤٢/١)، البحر المحيط في التفسير لابن حيان (٢٢/٣).

(٧) انظر: تفسير البغوي (٤١٠/١)، تفسير العز بن عبد السلام (٢٥٢/١)، اللباب في علوم الكتاب للنعماني (٣١/٥).

(٨) انظر: تفسير البغوي (٤١٠/١)، تفسير السمعاني (٢٩٤/١).

٤- ما لا يُدرى إلَّا بِالتَّأْوِيلِ[١].

وذكر علماء التفسير أموراً تعد من قبيل المتشابه، قال الضحاك[٢] فيما روي عنه: "المحكمات ما لم ينسخ منه، والمتشابهات ما قد نسخ"[٣]، وقال مقاتل بن حيان[٤]: "المتشابهات فيما بلغنا: (آلم) و(المص) و(المر) و(الر)"[٥]، وقال أبو فاختة[٦]: فواتح السور[٧].

وقيل: إن المحكم: ناسخه، وحرامه، وحلاله، وفرائضه، وما نؤمن به ونعمل عليه، والمتشابه: منسوخه، وأمثاله، وأقسامه، وما نؤمن به ولا نعمل به. روي هذا عن ابن عباس[٨].

وقيل: المحكم: الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه: ما فيه تصريف، وتحريف، وتأويل. قاله مجاهد[٩]، وقيل غير ذلك[١٠].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٧٠/٢)، الإتقان للسيوطي (٤/٣)، مختصر التحرير شرح الكوكب المنير لابن النجار (١٤٢/٢)، أقاويل الثقات للكرمي ص٤٩.

(٢) الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسر. كان يؤدب الأطفال. ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي. قال الذهبي: كان يطوف عليهم، على حمار! له كتاب في التفسير، توفي بخراسان سنة ١٠٥هـ. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٠٢/٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٨/٤).

(٣) انظر: الإتقان للسيوطي (٥/٣)، تهذيب اللغة للهروي (٥٨/٦)، تاج العروس للزبيدي (٤١٢/٣٦).

(٤) مقاتل بن حيان، أبوبسطام النبطي البلخي الخراساني الخراز، أحد الأعلام. وثقه يحيى بن معين وأبوداود وغيرهما. هرب أيام أبي مسلم إلى كابل. دعا خلقاً إلى الإسلام فأسلموا. مات بكابل سنة (١٤١-١٥٠هـ). انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٩٨٣/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٠/٦).

(٥) انظر: الإتقان للسيوطي (٥/٣).

(٦) سعيد بن علاقة أبو فاختة: مولى أم هانىء بنت أبي طالب. وقيل: مولى جعدة بن هبيرة المخزومي، وشهد المشاهد مع علي رضي الله عنه، توفي سنة (٨١-٩٠هـ). انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٩٣٧/٢)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٤٥/٩).

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٣/٢)، تفسير ابن عطية (٤٠١/١)، الإتقان للسيوطي (٥/٣).

(٨) انظر: فتح القدير للشوكاني (٣٦٠/١).

(٩) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، الأسود، شيخ القراء، والمفسرين، أخذ القرآن والتفسير والفقه عن ابن عباس عباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، توفي سنة ١٠٤هـ، وهو ساجد. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٤٤٩)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/ ٤٢).

(١٠) انظر: روضة الناظر لابن قدامة (٢١٣/١-٢١٧)، قواطع الأدلة للسمعاني (٢٦٥/١-٢٦٦)، العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (٦٨٣/٢-٦٩٣)، الفصول في الأصول للجصاص (٣٧٣/١-٣٧٧).

المسألة الثالثة: هل القرآن الكريم مشتمل على المحكم والمتشابه

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن القرآن الكريم مشتمل على ما هو محكم وما هو متشابه. وهذا مذهب جمهور أهل العلم.

المذهب الثاني: أن القرآن كله محكم، ولا يوجد فيه متشابه. وإليه ذهب بعض العلماء.

المذهب الثالث: أن القرآن كله متشابه [١].

المطلب الثاني: منهج الإمامين ابن حزم والشوكاني في المتشابه في القرآن الكريم

المسألة الأولى: منهج الإمام ابن حزم في المتشابه في القرآن الكريم

يحدّد أبو محمد ابن حزم رأيه في المتشابه، فيقول: "فلما علمنا أن كل ما ذكرنا[٢] ليس متشابها، متشابها، وعلمنا يقينا أنه ليس في القرآن إلا محكم ومتشابه، وأيقنا أنَّ كلٌ محكَم، فلما أيقنا ذلك ضرورة؛ علمنا يقينا أن ما عدا ما ذكرنا هو المتشابه، فنظرنا لنعلم أي شيء هو فنجتنبه ولا نتبعه، وإنما طلبناه لنعلم ماهيته لا كيفيته ولا معناه، فلم نجد في القرآن شيئا غير ما ذكرنا، حاشا الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور، وحاشا الأقسام التي في أوائل بعض السور أيضا، فعلمنا يقينا أن هذين النوعين هما المتشابه الذي نهينا عن اتباعه"[٣].

فهذا رأي ابن حزم رحمه الله، وقد بناه على الاستقراء، وحول استقرائه هذا يحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة[٤] فيقول: "ونراه قد سلك مسلك الاستقراء، فتتبع أوامر الله تعالى وآياته، واختبر كل نوع من أنواع الآيات الكريمة، فما وجده في موضوع اعتبره محكماً حتى يمكن الخطاب بمضمونه من تكليف بأمر أونهي، وعظة واعتبار، وما لم يجد في موضوعه أمراً أونهياً، وكان غير واضح المعنى؛ هو

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي (٣/٣). حكى هذه الأقوال ابن حبيب النيسابوري.

(٢) هذه الأمور التي ذكرها ابن حزم هي: ١- التوحيد ٢- صحة النبوة ٣- الشرائع المفترضة ٤- التنبيه على قدرة قدرة الله ٥- الأخبار السالفة ٦- الوعد والوعيد . انظر: الإحكام لابن حزم (١٢٣/٤).

(٣) الإحكام لابن حزم ١٢٣/٤.

(٤) محمد بن أحمد أبو زهرة: من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، أصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتاباً، منها: (الخطابة)، و(تاريخ الجدل في الإسلام) ، وأخرج لكل إمام كتاباً ضخماً: (أبوحنيفة، مالك، الشافعي، ابن حنبل)، توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٢٥/٦).

الذي اعتبره متشابهاً، وانتهى به الاستقراء إلى أن المشكل محصور في فواتح السور، وما ورد من عبارات القسم"(١).

وقد ناقش الإمام ابن حزم أصحاب الآراء الأخرى في المتشابه، وكان نقاشه كالتالي:

قال ابن حزم: "وقد قال قوم: إن المتشابه هو ما اختلف فيه من أحكام القرآن، وهذا خطأ فاحش! لأن هذا القول دعوى ورأي من قائله لا برهان على صحته، وأيضا فإن ما اختلف فيه فلا بد من أن الحق في بعض ما قيل فيه موجود واضح لمن طلبه، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل:٤٤] فالبيان مضمون موجود، فمن طلبه طلبا صحيحا وفّقه الله تعالى، وأيضا فإن الأحكام المختلف فيها فرض علينا تتبعها وابتغاء تأويلها، وطلب حكمها الحق فيها، والعناية بها والعمل بها، وأما المتشابه فحرام علينا بالنص تتبعه وطلب معناه؛ فبطل بذلك أن يكون المختلف فيه متشابها، وإذا بطل ذلك صح أنه محكم، ولا يضر الحقَّ جهلُ من جهل، ولا اختلاف من اختلف فيه"(٢).

"وقال آخرون: المتشابه هو ما تقابلت فيه الأدلة.

قال ابن حزم: وهذا خطأ فاحش؛ لأنه دعوى من قائله بلا برهان، ورأي فاسد، ولأن تقابل الأدلة باطل وشيء معدوم لا يمكن وجوده أبدا في الشريعة، ولا في شيء من الأشياء، والحق لا يتعارض أبدا، وإنما أُتي من أُتي في ذلك: لجهله بيان الحق، ولإشكال تمييز البرهان عليه مما ليس ببرهان، وليس جهل من جهل في إبطال الحق، ودليل الحق ثابت لا معارض له أصلا، وقد بينا وجوه البراهين في كتابنا (التقريب) وكتابنا الموسوم بـ(الفصل)، وفي كتابنا هذا، ولا سبيل إلى أن يأمرنا تعالى بطلب أدلة قد ساوى فيها بين الحق والباطل، ومن نسب هذا إلى الله تعالى فقد ألحد وأكذبه ربُّه تعالى إذ يقول: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩]، وإذ يقول تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ

(١) ابن حزم حياته وعصره لأبي زهره (ص: ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) الإحكام لابن حزم (١٢٤/٤).

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام:١١٩]، فصح أن متشابه الأحكام الذي ذكر صلى الله عليه وسلم أنها لا يعلمها كثير من الناس مبيَّنة بالقرآن والسنة، يعلمها من وفقه الله تعالى لفهمه من الفقهاء الذين أمر عز وجل بسؤالهم إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل:٤٣]"[(١)].

ومن خلال تتبع كلام الإمام ابن حزم في كتابه (الإحكام) يتضح أنه حدّد المشابه في ما استأثر الله بعلمه، وذلك محصور في: الحروف المقطعة، وفي الأقسام التي في أوائل بعض السور، مثل ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ [النجم:١]، ﴿ وَالطُّورِ ﴾ [الطور:١]، ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ ﴾ [المرسلات:١]، ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾ [العاديات:١]، وأرجع ذلك إلى أن الله حرم تتبع ذلك المتشابه، لذا نجده يقول: "وبرهان ذلك: أن الله حرم تتبع ذلك المتشابه، وأخبر أن متبعه وطالب تأويله زائغ القلب، مبتغي فتنة، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم ممن اتبعه، ولا سبيل إلى علم معنى شيء دون تتبعه وطلب معناه، فإذا كان التتبع حراما فالسبيل إلى علمه مسدود، وإذا كانت مسدودة فلا سبيل إلى علمه أصلا، فصح أن الراسخين لا يعلمونه أبدا، وأيضا فإن فرضا على العلماء بيان ما علموا الناس كلهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧]، ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩] فلو علمه الراسخون في العلم لكان فرضاً عليهم أن يبينوه للناس ولو لم يبينوه لكانوا ملعونين، ولو بينوه لعلمه الناس، ولو علمه الناس لكان محكما لا متشابها، ولتساوى فيه الراسخون وغيرهم، وهذا ضد ما قال تعالى؛ فبطل بذلك قول من ظن أن الراسخين يعلمونه"[(٢)]

(١) المصدر نفسه (٤/١٢٤-١٢٥).

(٢) المصدر السابق (٤/١٢٥-١٢٦).

المسألة الثانية: منهج الإمام الشوكاني في المتشابه في القرآن الكريم

نقل الإمام الشوكاني في كتابه (إرشاد الفحول) مجموعة من تعاريف المحكم والمتشابه، ولم يرجِّح منها شيئاً[١]. لكنه اختار في تفسيره رأيا فقال: "والأولى أن يقال: إن المحكَم: هو الواضح المعنى، الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه أوباعتبار غيره، والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أولا تظهر دلالته، لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره"[٢].

وقد ناقش الإمام الشوكاني أصحاب الآراء الأخرى فقال: "أهل القول الأول جعلوا المحكَم: ما وجد إلى علمه سبيل، والمتشابه: ما لا سبيل إلى علمه، ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه، فإن مجرد الخفاء أوعدم الظهور، أو الاحتمال، أو التردد؛ يوجب التشابه، وأهل القول الثاني: خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها.

وهكذا أهل القول الثالث: فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها.

وأهل القول الرابع: خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً.

وأهل القول الخامس: خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف، وجعلوا المتشابه مقابِلَه، وأهملوا ما هو أهم من ذلك، مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف وتحريف – كفواتح السور المقطعة –.

وأهل القول السادس: خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها، وأن هذا هو بعض أوصافهما.

وصاحب القول السابع وهو ابن خويز منداد[٣]، عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكما، والى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابها، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أوغير مفهوم"[٤].

---

(١) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (٩٠/١).

(٢) فتح القدير للشوكاني(١ /٣٦٠).

(٣) محمد بن أحمد بن عبد الله، الفقيه أبوبكر بن خويز منداد، أبوعبد الله صاحب أبي بكر الأبهري، وله كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القرآن، توفي سنة ٣٩٠هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٨٠/٨)، الديباج المذهب لابن فرحون (٢٢٩/٢).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٣٦١/١).

ومن هنا اختلفوا في حكم العمل بالمتشابه بعد أن اتفقوا على وجوب العمل بالمحكم، وحقق الإمام الشوكاني عدم جواز العمل بالمتشابه؛ لأن العمل فرع عن العلم بالمراد وهاهنا غير ممكن، حيث قال: "وحكم المحكم هو وجوب العمل به، وأما المتشابه فاختلف فيه على أقوال: الحق عدم جواز العمل به؛ لقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] والوقف على قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾متعيَّن"(١).

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح

أ- الموافق والمخالف

أولاً: اختار الإمامان القول بأن القرآن الكريم مشتمل للمحكم والمتشابه، وهو قول الجمهور، خلافاً لبعض العلماء.

ثانياً: منهج ابن حزم في المتشابه أنه ما استأثر الله بعلمه، وحصر ذلك في فواتح السور، ومقدمات بعض السور، وهو مذهب جماعة من العلماء، منهم: أبو فاختة، ومقاتل بن حيان وغيرهم.

أما منهج الإمام الشوكاني في المتشابه فهو: أنه ما لا يتضح معناه، أولا تظهر دلالته، لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره(٢). ونراه بهذا قد جمع بين رأي أبو فاختة، ومقاتل بن حيان، ورأي من قال في المتشابه: إنه ما لا يستقلُّ بنفسه إلا بردِّه إلى غيره.

ب- الأدلة:

أولاً: هل القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه؟

أدلة المذهب الأول:

استدل القائلون بأن القرآن الكريم مشتمل لما هو محكم ولما هو متشابه بدليلين:

الدليل الأول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾[آل عمران:٧].

الدليل الثاني: الوقوع؛ حيث وقع في القرآن ما هو محكم وعرفنا معناه، وما هو متشابه لم نعلم معناه.

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني(١/٩٠).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/٣٦٠).

أدلة المذهب الثاني:

استدل القائلون بأن القرآن الكريم كله محكم بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١]. حيث صرح بأن جميع آيات القرآن محكم، ولا توجد أيُّ آية متشابهة.

أدلة المذهب الثالث:

استدل القائلون بأن القرآن كله متشابه بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣][١].

والمذهب الأول هو الصحيح لدى الباحث- انقسامه إلى محكم ومتشابه - للآية المصدر بها، والجواب عن الآيتين: أن المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه، وبتشابهه: كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز[٢]. والله تعالى أعلم.

ثانياً: ما المراد بالمحكم والمتشابه؟

- من خلال النظر في منهج الإمامين يتضح لنا اتفاقهما على أن الحروف المقطعة هي من المتشابه، وفي هذا يقول الإمام الشوكاني في تفسيره: "فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل؛ فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط"[٣]، وعلل ذلك بقوله: "فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت؛ فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرَّطَانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف، أوحروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدَّمه ما يدل عليه، ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره، ومن هذا القبيل: ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟!..."[٤].
- اختلف الإمامان ابن حزم والشوكاني في المتشابه من حيث حصره، فحصره الإمام ابن حزم في الحروف المقطعة، ومقدمات بعض السور، وذلك بناء على أن هذا هو القسم الذي لا سبيل إلى علم معنى شيء منه، وهو مما حرم علينا تتبعه، ولو علمه أحد منا لصار في حكم المحكم.

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي (٣/٣).

(٢) انظر: قواطع الأدلة للسمعاني (٢٥٦/١).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣٦/١).

(٤) المصدر نفسه (٣٦/١).

- بينما ذهب الإمام الشوكاني إلى أن المتشابه أوسع من ذلك، وليس محصورا فقط في الحروف المقطعة، ومقدمات بعض السور؛ بل يشمل أيضاً: ما لم تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره، فإن مجرد الخفاء أوعدم الظهور، أوالاحتمال، أوالتردد؛ يوجب التشابه.

والذي ظهر للباحث بعد النظر في أدله الفريقين:

أن مذهب الإمام الشوكاني هو الراجح؛ لشمول المتشابه الحروف المقطعة وغيرها. وللوقوع؛ حيث وقع في القرآن ما هو محكم وعرفنا معناه، وما هو متشابه لم نعلم معناه من غير الحروف المقطعة. والله تعالى أعلم.

ت- منشأ الخلاف:

هل القرآن الكريم مشتمل على المحكم والمتشابه؟

ما المراد من المحكم والمتشابه؟

ث- الأثر الفقهي

الخلاف في مسألة: هل القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه؟ خلاف لفظي. بينما الخلاف في مسألة: ما المراد بالمحكم والمتشابه؟ خلاف معنوي؛ لأن كل أصحاب مذهب امتنع عن التعرض للمتشابه بحسب اصطلاحهم؛ لئلا يكون داخلاً تحت الذم الذي توعد الله به من تعرَّض للمتشابه بالتأويل.

المبحث السابع: في ما نقل آحاداً من القرآن الكريم

المطلب الأول: تأصيل المسألة

اختلف العلماء في ما نقل آحاداً من القرآن الكريم، على مذهبين:

المذهب الأول: وجوب تواتر القرآن الكريم، وهذا مذهب الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم، وأما القراء فأجمعوا في أول الزمان على ذلك، وكذلك في آخره، لم يخالف من المتأخرين إلا أبا محمد مكي[١]، وتبعه بعض المتأخرين[٢].

المذهب الثاني: ذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله، وليس بشرط في محله ووضعه وترتيبه، بل يكثر فيها نقل الآحاد[٣].

وقد نقل السيوطي عن ابن الجزري أن أنواع القراءات ستة:

١- المتواتر: وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه. مثاله: ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة. وهذا هو الغالب في القراءات.

٢- المشهور: وهو ما صح سنده؛ بأن رواه العدل الضابط عن مثله، ووافق العربية، ووافق أحد المصاحف العثمانية، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر.

٣- ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية، أولم يشتهر الاشتهار المذكور. وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.

٤- الشاذ: وهو ما لم يصح سنده.

٥- الموضوع: وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل.

٦- ما يشبه المدرج من أنواع الحديث. وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير[٤].

---

(١) مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، أبو محمد: مقرئ، عالم بالتفسير والعربية، له كتب كثيرة، منها: (مشكل إعراب القرآن)، و(الكشف عن وجوه القراءات وعللها)، و(الهداية إلى بلوغ النهاية)، توفي سنة ٤٣٧هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٥٦٩/٩)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٧٤/٥).

(٢) انظر: مناهل العرفان للزرقاني(٤٢٩/١).

(٣) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (٤٣٤/١)، تفسير القاسمي (١٩٩/١).

(٤) انظر: الإتقان للسيوطي (٢٦٤/١-٢٦٥).

المطلب الثاني: منهج الإمامين ابن حزم والشوكاني في ما نُقل آحاداً من القرآن الكريم

المسألة الأولى: منهج الإمام ابن حزم في ما نقل آحاداً من القرآن الكريم

يقول الإمام ابن حزم رحمه الله: "ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا، والذي ألزمنا الإقرار به، والعمل بما فيه، وصح بنقل الكافة الذي لا مجال للشك فيه أن هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف، المشهور في الآفاق كلها"(١).

من خلال هذا النص يتضح لنا أن مذهب الإمام ابن حزم: أن القرآن منقول فقط بطريقة واحدة وهي التواتر، وأن ما لم ينقل بالتواتر فلا شك فيه أنه ليس بقرآن.

المسألة الثانية: منهج الإمام الشوكاني في ما نُقل آحاداً من القرآن الكريم

يرى الإمام الشوكاني بأن ما نقل آحاداً، ووافق الرسم العثماني، وطابق الوجه العربي والإعرابي؛ فهو قرآن، ولا يشترط التواتر، حيث يقول: "والحاصل: أن ما اشتمل عليه المصحف الشريف، واتفق عليه القراء المشهورون فهو قرآن، وما اختلفوا فيه، فإن احتمل رسم المصحف قراءة كل واحد من المختلفين، مع مطابقتها للوجه الإعرابي، والمعنى العربي؛ فهي قرآن كلها"(٢).

ويقول أيضاً: "وقد نقل جماعة من القراء الإجماعَ على أن في هذه القراءات ما هو متواتر، وفيها ما هو آحاد، ولم يقل أحد منهم بتواتر كل واحدة من السبع، فضلا عن العشر، وإنما هو قولٌ قاله بعض أهل الأصول، وأهل الفن أخبر بفنهم"(٣).

ويرد على من يقول أن القراءات منقولة إلينا جميعها بالتواتر فيقول: "فإن هذه القراءات كل واحدة منها منقولة نقلا آحادياً، كما يعرف ذلك من يعرف أسانيد هؤلاء القراء لقراءاتهم"(٤).

ويرى الإمام الشوكاني أن ما احتمل بعضها دون بعض: فإن صح إسنادَ ما لم يحتمله رسم المصحف، وكانت موافقة للوجه الإعرابي، والمعنى العربي، فهي الشاذة، ولها حكم أخبار الآحاد في

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٩٥).
(٢) إرشاد الفحول للشوكاني (٨٨/١).
(٣) المصدر نفسه (٨٨/١).
(٤) المصدر السابق ١(/٨٧-٨٨).

الدلالة على مدلولها، وسواء كانت من القراءات السبع أومن غيرها، وما لم يصح إسناده مما لم يحتمله الرسم فليس بقرآن، ولا منزل منزلة أخبار الآحاد(١).

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح

أ- الموافق والمخالف

اختار الإمام ابن حزم ما اختاره جمهور العلماء والقراء وغيرهم؛ من أنه ليس في القرآن غير المتواتر، وأن ما نقل عن طريق الآحاد فلا يسمى قرآناً.

بينما اختار الإمام الشوكاني وكثير من الأصوليين أنه تقبل قراءة الآحاد إذا:

- اتفق عليها الأئمة المشهورون.
- ووافقت الرسم العثماني.
- ووافقت الوجه العربي أو الإعرابي. وتسمى قرآناً.

ب- الأدلة

أدلة المذهب الأول:

القرآن عند الجمهور هو: ما نقل بين دفتي المصحف نقلا متواتراً... وحينئذ فلا بد من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة(٢).

قال الحافظ ابن الجزري مبيناً ضابط القراءة: "كل قراءة وافقت العربية مطلقا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً، وتواتر نقلها؛ هذه القراءة المتواترة المقطوع بها ... ونعني بالتواتر: ما رواه جماعة عن جماعة كذا إلى منتهاه، يفيد العلم من غير تعيين عدد، هذا هو الصحيح"(٣).

وينقل صاحب (مناهل العرفان) قول صاحب (مسلم الثبوت) وشارحه ما نصُّه: "ما نقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً، ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعي على نقله؛ لتضمنه التحدي، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى والنظم جميعا، حتى تعلق بنظمه أحكاما كثيرة، ولأنه يتبرك به في كل عصر بالقراءة، ولذا علم جهد الصحابة في حفظه

---

(١) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (٨٨/١).

(٢) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (٤٢٩/١).

(٣) منجد المقرئين لابن الجزري ص١٨.